أمّيّة النبيّ ﷺ في نظر المستشرقين

أ.د. جواد كاظم النصر الله[1]

المقدّمة

تعدّ دائرة المعارف الإسلاميّة أكبر عمل قام به المستشرقون؛ إذ شارك في كتابتها عدد كبير من المستشرقين، وهي خلاصة الفكر الاستشراقيّ، قصدوا منها كتابة موسوعة إسلاميّة متخصّصة بتاريخ الحضارة الإسلاميّة التي هي وليدة البعثة النبويّة، وأرادوا بهذا العمل جمع كلّ ما يتعلّق بالحضارة الإسلاميّة والبلدان الإسلاميّة، بحيث يتمّ تبويبها بشكل مقالات مرتّبة على حروف الهجاء، متّبعين في ذلك منهج القواميس والمعاجم؛ ليسهل الرجوع إليها، وقد أُعدّت هذه الموسوعة لتكون مرجعًا للعديد من الدراسات الغربيّة تجاه الشرق، وكُتبت بلغات متعدّدة منها (الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة)، وهذا دلالة على الانتشار الواسع لهذا العمل، وعلى أهمّيّته بالنسبة للباحثين الغربيّين ليتعرّفوا على جوانب من الحضارة الإسلاميّة بطريقة سهلة وسريعة، وعلى الرغم من أنّ هذا العمل أُعدّ على أسس علميّة ومنهجيّة، إلّا أنّنا نجد في بعض المقالات رؤى غير منصفة أو غير دقيقة تجاه الرسول ﷺ والرسالة الإسلاميّة.

ومن جملة ما دوّنه المستشرقون حول السيرة النبويّة هو مصطلح أمّيّة النبيّ ﷺ، واختلافهم في بيان معنى الأمّيّة عند النبيّ ﷺ، أو كمصطلح وصف به العرب المسلمون، واعتمادهم في تلك الرؤى على ما ورد في المصادر الإسلاميّة.

لذا ستقتصر هذه الدراسة على ما ورد في دائرة المعارف الإسلاميّة في الطبعات المعرّبة وغير المعرّبة منها، وقسم هذا البحث حسب المصطلحات الواردة في القرآن الكريم وتفسير المسلمين

---

١. جامعة البصرة – كلية الآداب.

لتلـك النصوص القرآنيـة بعد بيان المعاني اللغويّة لهذه المفاهيـم في معاجم اللغة، وبعدها تمّت مناقشة رؤى المستشرقين الواردة في دائرة المعارف الإسلاميّة. لذلك توزّعت الدراسة على ثلاثة محاور أساسيّة: تعرّض المحور الأوّل إلى أمّيّة النبيّ ﷺ في نظر المستشرقين، والمحور الثاني عالج الموضـوع بناء على القرآن الكريم والمصادر الإسـلاميّة، وجاء المحور الثالث ليُناقش ما طرحه المستشرقون.

أوّلًا: أمّيّة النبيّ ﷺ في نظر المستشرقين

عكف الفكر الاسـتشراقيّ على دراسـة مسـألة أمّيّة النبيّ ﷺ دراسة مسـتفيضة، فلا تجد مسـتشرقًا يتناول السـيرة النبويّة إلّا وتعرض لهـا بالبحث والتحليل[١]، ولم يكن المسـتشرقون مجمعـين على إثبات علمهِ بالقراءة والكتابة، ولا على عدم علمـه بها (أمّيّ)، وراحوا يطرحون حلًّا وسـطيًّا، وهو أنّ النبيّ ﷺ كان أمّيًّا (أي يجهل القراءة والكتابة) قبل تلقّيه الوحي لا بعده. وفي الواقع لم يكن الفكر الاسـتشراقيّ رائدًا في هذه الآراء، بل هي نتاج الفكر الإسلاميّ الذي سبقهُ في دراسة هذا المفهوم القرآنيّ[٢]، وكان سبب هذا الاختلاف والائتلاف في الرؤى يعود إلى تعـدّد النصوص القرآنيّة وتعارضها مع النصوص الروائيّة، فوُلد نوع من الانحراف المعرفيّ في بعض تلك الآراء، مما ولّد نوعًا من الفوضى في الخطاب الاستشراقيّ فيما يخصّ هذا المفهوم.

---

١. ينظر: على سـبيل المثال: نولدكه، تاريخ القرآن، ١: ١٠-١٧؛ وات، محمد في مكّة، ١١٢- ١١٣؛ آرمسـترونغ، سيرة النبيّ محمّد، ١٣٥-١٣٦؛

Horovitz, Koranische Untersuchungen, 51- 53; Buhl, &Schaeder, Das Leben Muhammeds, 56, 131.; Lammens, Qoran et Tradition Comment Fut Compose La Vie de Mahomet, 21-22.

٢. ينظر: على سبيل المثال: الجاحظ، البيان والتبيين، ٤: ٣٢-٣٤؛ المفيد، أوائل المقالات، ١٣٥-١٣٧؛ الرازيّ، التفسير الكبـير المعروف بمفاتيح الغيـب، ١٥: ٢٧-٣٢؛ الأنصاريّ القرطبيّ، الجامع لأحـكام القرآن، ١٣: ٣٥١-٣٥٣؛ الذهبيّ، سـير أعلام النبلاء، ١٤: ٩٠-١٩١. وانقسـمت هذه الآراء إلى ثلاث أقوال، عدم معرفته القراءة والكتابة طيلـة حياته الشريفة، والرأي الثاني يذهب إلى معرفته لها بعد البعثـة، والرأي الثالث إلى معرفته القراءة والكتابة قبل البعثة وبعدها.

فقد ورد في المقال الذي كتبه ر. پاريه (R.Paret)[١]: حول كلمة (أمّيّ) فقال: «أمّيّ لقب محمّد في القرآن، وهو لقب يرجع من بعض الوجوه إلى كلمة أمَّة، ولكن يظهر أنّه ليس مشتقًّا منها مباشرة؛ لأنه لم يظهر إلّا بعد الهجرة[٢]، ويختلف معناه عن معنى كلمة أمّة التي كانت شائعة قبل الهجرة، وفي سورة آل عمران الآية[٣] ٢٠ يدعو محمّد أهل الكتاب والأمّيّين إلى اعتناق الإسلام، ومعنى كلمة الأمّيّين هنا (المشركون)، وهي تدلّ على هذا المعنى بعينه في الآية الخامسة والسبعين من السورة نفسها[٤]، وذلك على لسان أهل الكتاب، والآية الأخيرة تجعل من المحتمل أن كلمة أمّيّ أو أمّيّين وضعها أهل الكتاب (وربما كان واضعوها هم اليهود) للدلالة على الوثنيّين، ويزيد في تأييد هذا الرأي أنّ هورفتز[٥] بيّن أنّ لها مقابلًا في العبريّة هو (امـوُّت ها عو لام)،

---

١. ر. پاريه (Rudi Paret) (١٩٠١–١٩٨٣م) مستشرق ألمانيّ، ولد في (Wittendorf) بنواحي (Freudenstadt) في جنوبي ألمانيا من أسرة يكثر فيها القساوسة المسيحيّون، دخل جامعة توبنجن وتتلمذ في الدراسات العربيّة، وحصل على الدكتوراه الأولى في سنة ١٩٢٤م، ثم على دكتوراه التأهيل للتدريس في الجامعة في سنة ١٩٢٦م، وفي إثر ذلك عُيّن مدرّسًا مساعدًا في قسم الدراسات الشرقيّة في جامعة توبنجن، ثم شغل كرسي علوم الإسلام والساميّات في جامعة بون، أمّا نتاجه العلميّ، فالعمل الأساس الذي ارتبط به اسم رودي پارت هو ترجمة القرآن إلى اللغة الألمانيّة في مجلّد، والتعليق على الترجمة في مجلّد ثانٍ، وهو شرح فيلولوجي لنصوص القرآن الكريم (وهي دراسة تبحث عن أصل الكلمات واشتقاقاتها)، وكتب رسائل صغيرة عن القرآن منها رسالة بعنوان (محمّد والقرآن)، ورسالة (الإسلام والتراث الثقافيّ اليونانيّ) سنة (١٩٥٠م). ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، ٦٢–٦٣.

٢. وقد ذكر أحمد محمد شاكر الذي علّق على المقال في الدائرة، بأن ما ذكره المستشرق من أنّ كلمة أمّيّ لم تظهر إلّا بعد الهجرة، وأنّ الكلمة مما أطلقه اليهود على العرب، وأنّهم يريدون بـ(الأمّيّين) الوثنيّين، وبيّن أن آيات سورة الأعراف مكّيّة خلافًا لما ذكر المستشرق، ينظر: ر. پاريه، مادّة (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، (بدون اسم مترجم المقال)، (ط١، القاهرة، د.نا، ١٩٣٣م)، ٢: ٦٤٥؛ ر.پاريه (ر. پارت)، مادة (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، (بدون اسم مترجم المقال)، (ط٢، القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م)، ٤: ٤٢٧. ولعل المستشرق قصد أن مصطلح (أُمّة) لم يظهر إلا بعد الهجرة في وثيقة المدينة (ينظر: ابن هشام، السيرة النبويّة، ٢: ٣٤٨).

٣. ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، آل عمران: ٢٠.

٤. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، آل عمران: ٧٥.

٥. جوزيف هورفتس (هورفتز) (Joseph Horovits) (١٨٧٤–١٩٣١م) وهو مستشرق ألمانيّ يهوديّ، وُلد في لاونبرج،

ويقابلها في اليونانيّة (χόσμουτουέφνητά)[١]، وفي سورة الجمعة الآية الثانية[٢] ما ينصّ على أنّ الله بعث رسولًا في الأمّيّين، ولما كانت هذه الآية تدلّ دلالة لا تقبل الشكّ على أنّ محمّدًا رسول من الأمّيّين إلى الأمّيّين، فلا غرو أن نقول إنّه يسمّي نفسه النبيّ الأمّيّ أيضًا (سورة الأعراف الآيتان ١٥٧، ١٥٨)[٣]، ويتقدّم لليهود على هذا الاعتبار (رنبي أمّوت ها عو لام) (ينظر: هورفتز، ويُنظر سورة الأعراف الآية ١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾[٤]، ويصعب الجزم بالمعاني المختلفة التي كان يقصدها محمّد من كلمة أمّيّ، ولو أنّنا وازنّا سورة الأعراف الآية ١٥٧ بما امتدح به محمّد أمّته في سورة آل عمران الآية ١١٠ – ١٠٤[٥]، فلا يسعنا إلّا أن نظنّ أنّ النبيّ ربّما تصرّف في المعنى الأصليّ لكلمة (أمّيّ)، وعلى أيّ حال فلم يكن يرى منقصة في لقب النبيّ الأمّيّ، وذهب بول[٦] (Frants Buhl)

وتعلم في جامعة برلين، وعُيّن مدرّسًا فيها، وعمل في الهند (١٩٠٧–١٩١٤م)، حيث كان يعمل مدرسًا للغة العربيّة في إحدى الكلّيّات، عاد إلى ألمانيا وعُيّن مدرّسًا للغات الساميّة في جامعة فرانكفورت سنة (١٩١٤م) حتى وفاته، وكانت رسالة الدكتوراه عن كتاب المغازي للواقديّ (١٨٩٨م) وحقّق جزأين من طبقات ابن سعد بإشراف زاخاو (ليدن ١٩٠٤–١٩١٨م)، مباحث قرآنيّة سنة (١٩٢٦م)، الصلات العربيّة اليهوديّة في الجاهليّة سنة (١٩٢٩). ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، ٦٢١–٦٢٢؛ العقيقيّ، المستشرقون، ٢: ٤٣٢–٤٣٣.

1. Horovitz, Koranische Untersuchungen, 52.

٢. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، الجمعه: ٢.

٣. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، الأعراف: ١٥٧ و﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الأعراف: ١٥٨.

4. Horovitz, Koranische Untersuchungen, 51-53.

٥. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، آل عمران: ١٠٤ و﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، آل عمران: ١١٠.

٦. ف. بول (بوهل) (Fr. Buhl) (١٨٥٠–١٩٣٢م)، مستشرق دنماركيّ وُلد في كوبنهاجن، وبدأ حياته الجامعيّة بدراسة اللاهوت، ودرس اللغات الشرقيّة، التحق بجامعتي فيينا وليبزيج (١٨٧٦–١٨٧٨م)، نال درجة الدكتوراه عام (١٨٧٨م)، وسمّي أستاذًا للعهد القديم بجامعة كوبنهاجن، في سنة (١٨٨٥م)، رحل إلى الشرق فزار مصر وفلسطين والشام ولبنان وتركيا، وعاد بعدها إلى وطنه، وضع كتابًا في وصف جغرافية فلسطين حاول فيها تحديد موقع الأماكن المذكورة في الكتب القديمة، انهمك في دراسة القرآن وتاريخ النبيّ ﷺ ومنها كتاب حياة محمّد باللغة الدنماركيّة سنة

أخـيرًا إلى أنّ كلمة أمّيّ معناها (الـذي لا يكتب ولا يقرأ)، (ςλαίχό)، وليس معناها (الوثنيّ[1] (ἔφιχός))، ورغم أنّ هذا الرأي مطابق لنصّ الآية الثامنة والسـبعين من سـورة البقرة[2]، فإنّ مـا عليه أكثر مما له، ويمكن أن يدلّ لفظ الأمّيّين في هذه الآية على الوثنيّين من غير شـكّ، عند مـن لا يريد البحث عن معنى آخر، ومن جهة أخرى، فإنّ كلمة أمّيّين في الآية ٧٥ من سـورة آل عمران[3] لا يمكن بالنظر إلى سـياق الكلام تفسيرها «بالذي لا يكتب ولا يقرأ»، وإن كانت تـدلّ في هذا الموضع عـلى الوثنيّين، وهناك عوامل لغويّة تجعل مـن الصعب أن نقول إنّ كلمة أمّيّ معناها «الذي لا يكتب ولا يقرأ»، فلا الكلمة العربيّة «أُمَّة» ولا العبريّة «أُمَّا» ولا الآراميّة «أميثا» تدلّ على الأُمّة في حالة الجهالة، واعتراض بول (Buhl) على تسـمية محمّد نفسه (النبيّ) الأمّيّ بمعنى الوثنيّ يفقد قيمته، إذا عرفنا أنّ محمّدًا ربّما لم يكن على بيّنة مما تدلّ عليه كلمة أمّيّ عند اليهود، وأنّه كما أشرنا إليه آنفًا ربّما جعل لهذه الكلمة معنى جديدًا.

وهناك من اسـتدلّ بإطلاق لفظ الأمّيّ على محمّدﷺ بأنّه لم يكن يقرأ ولا يكتب، والحقيقة أنّ كلمـة (الأمّيّ) لا علاقة لها بهذه المسـألة، لأنّ الآية ٧٨ من سـورة البقـرة[4] التي تدعو إلى هذا الافتراض، لا ترمـي الأمّيّين بالجهل بالقراءة والكتابة، بل ترميهم بعدم معرفتهم بالكتب المنزلة»[5].

وذكر المسـتشرقان كاتبَا مقال محمّـدﷺ حول كلمة (أمّيّ)، فقالوا: «كثـيرًا ما دار النقاش

(١٩٠٣م)، ونقله شـايدر إلى اللغة الألمانيّة عام (١٩٣٠م)، ودعوة محمّد إلى الإسـلام كما ورد في القرآن (١٩٢٤م)، ونقل عدة أجزاء من القرآن إلى اللغة الدنماركيّة، وعُني بتاريخ الشيعة، ولديه مؤلف بعنوان نهضة الشيعيّين في الدولة الأمويّة سنة (١٩١٠م)، وله كتاب بعنوان عليّ مدّعيًا وخليفة سنة (١٩٢١م)، وكتب عدّة مقالات في دائرة المعارف الإسلاميّة. ينظر: العقيقيّ، المستشرقون، ٢: ٥٢٢-٥٢٣.

1. Buhl, &Schaeder, Das Leben Muhammeds, 56, 131.

٢. ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، البقره: ٧٨.

٣. ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، آل عمران: ٧٥.

٤. ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

٥. پاريه، مادة (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، (بدون اسم مترجم المقال)، ط١، ٢: ٦٤٣-٦٤٥. وينظر: پاريه، (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، (بدون اسم مترجم المقال)، ط٢، ٤: ٤٢٦-٤٢٧.

حَوْلها وهي كلمة (أمّيّ)، فحين تشير الآية ١٥٧ من سورة الأعراف[١] إلى محمّدﷺ على أنّه النبيّ الأمّيّ، فالظاهر أنّها تعني (الشخص الذي لم يبلَّغ من قبل بكتاب الله)، أي عكس أهل الكتاب الذين سبق أن تلقّوا كتاب الله بلسانهم، وقد كان محمّدﷺ أمّيًّا قبل تلقّيه الوحي لا بعده، ولا يؤثّر هذا التفسير في نتيجة التساؤل عمّا إذا كان بمقدور محمّدﷺ أن يقرأ وأن يكتب، اللهم إلّا إنْ كانت كلمة (أمّيّ) تحمل في طيّاتها معنى عجزه عن قراءة الكتب المقدّسة لليهود والنصارى، ولا بدّ أنّ اشتغاله بالتجارة كان يستلزم قدرًا من الإحاطة بقراءة العربيّة وكتابتها، وتشير الآيات ٤-٦ من سورة الفرقان إلى اتهام الكفّار له بالافتراء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾. ولم تكتسب كلمة (أمّيّ) معناها الشائع الآن (وهو الجهل بالقراءة والكتابة) إلّا فيما بعد وفي الدوائر الدينيّة، كتدليل على معجزة تلقّي محمّدﷺ الوحي من الله عن طريق جبريل عليه السلام»[٢].

ويذكر المستشرق إريك جوفروي: (Eric Geoffroy[٣])، أن «الأمّيّين تعني الذين لم يبلّغوا بكتاب، وتظهر هذه الصفة الدينيّة خمس مرات في القرآن الكريم[٤]، وتمّ استخدامها مرّة واحدة

---

١. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

٢. ف. بول و ت. ولت، مادّة (محمّد)، موجز دائرة المعارف الإسلاميّة، ٢٩: ٩١٢٠-٩١٢١. وينظر:
Buhl - OA, Welet, Muhammad, The Encyclopaedia of Islam, V.VII: 363.

٣. إريك جوفروي (Eric Geoffroy)، مستشرق فرنسيّ، وُلد عام (١٩٥٦م)، في مدينة بلفور، وهو باحث وكاتب في الدراسات الصوفيّة، ومدرّس في جامعة ستراسبورغ منذ فترة طويلة، وواحد من أشدّ منتقدي فكرة وجود صراع الحضارات. له العديد من المؤلّفات منها: الصوفيّة في مصر وسوريا تحت الحكم المملوكيّ وأوائل العهد العثمانيّ (١٩٩٥م)، والجهاد والتأمّل الحياة وتدريس الصوفيّة في زمن الحروب الصليبيّة (باريس ١٩٩٧م)، وأعيدت طباعته عام (٢٠٠٣م)، حكمة الأساتذة الصوفيّين (باريس، ١٩٩٨م)، أسند إليه في هذا الجزء من دائرة المعارف الإسلاميّة خمس مقالات هي: تجلّي (ص٦٠-٦١)، طائفة (ص١١٦-١١٧)، طريقة (ص٢٤٣-٢٤٦)، أم الكتاب (ص٨٥٤)، أمّيّ (ص٨٦٣-٨٦٤). ينظر:
The Encyclopaedia of Islam, V.X /P.VI. and p.60-61, 116-117, 243-246, 854, 863-864.

٤. وقد وردت ست مرات ينظر: البقرة: ٧٨؛ آل عمران: ٢٠، ٧٥؛ الأعراف: ١٥٧-١٥٨؛ الجمعة: ٢.

فقــط في صيغــة المفرد فيما يتعلّق بالنبيّ[١]، وقــد جذبت عبارة النبيّ الأمّــيّ المفسّرين بدرجات متفاوتة، وتشــير صفة الأمّيّ أو الأمّيّين في بعض الســياقات إلى اليهــود الذين يعرفون التوراة بصورة غير تامّة (البقرة الآية: ٧٨)[٢]، وتشــير في غيرها إلى العرب المشركين (سورة آل عمران الآية: ٢٠) (ســورة الجمعة الآية: ٢)[٣]، وهذه الأخيرة تشــير إلى الذين ليس لهم كتاب سماويّ مقدّس عــلى العكس من اليهود و النصــارى، وهذا القول الأخير يؤيّد ما ورد في ســورة (آل عمــران الآية: ٧٥)[٤]، وعلى الأرجــح أنّه تمّ وضع مصطلح الأمّيّين من قبــل اليهود في المدينة لوصف غير اليهود الوثنيّين (الوثنيّون)، وفي الوقت نفسه يؤكد بعض المفسّرين على أنّ الأمّيّين تعني عدم المعرفــة بالقراءة والكتابة، لأنّ قلّة منهم كانوا يعرفــون كيف يكتبون، ويؤكّد ذلك الحديث الذي قدمه البخاريّ ومسلم نحن أُمة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب[٥].

إن مصطلــح (أمّيّ) في الواقع مذكور بشــكل عامّ على أنّهُ من أُمّ ويعني أساسًــا الأُمّ، وفي اللغات الساميّة الشخص الأمّيّ هو الذي يبقى على ما ولدته أُمُّه، وفي اثنين من الآيات المهمّة في (سورة الأعراف الآيتان: ١٥٧-١٥٨)[٦] ينطبق على محمّد الأمّيّة (الأمّيّ)، إنّ معظم المفسّرين المسلمين يشــير إلى أنّ القرآن في (سورة العنكبوت الآية: ٤٨)[٧] يشير إلى عدم قدرته على قراءة أيّ كتاب ولا يخطّ بيده؛ لذا فالأمّيّة هي معجزة من النبيّ، علاوة على ذلك تثبت هذه الأمّيّة أنّ محمّدًا لم يكن لديه أيّ معرفة مباشرة بالكتب المقدّســة اليهوديّة والمســيحيّة، وبالتالي فلا يمكن

---

١. وقد وردت مرتين يُنظر: الأعراف: ١٥٧-١٥٨.

٢. ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

٣. سورة آل عمران ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، آل عمران: ٢٠ و﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٤. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٥. البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاريّ، (د. ط، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨١م)، ٢: ٢٣٠؛ أبو الحسين مسلم الحجاج، بن مسلم، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، (د.ط، بيروت، دار الفكر، د.ت.)، ٣: ١٢٤.

٦. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، الأعراف: ١٥٧ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الأعراف: ١٥٨.

٧. ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، العنكبوت: ٤٨.

أن يكـون قد أخذ منها، ويرى ابن خلدون[١] أن أمّيّة محمّد هي كمال في حقّه وليسـت نقصًا فيه كـما هو الحال مـع بقيّة البشر، ومن جانبه يشـير الآلوسيّ[٢] إلى أنّ نعت أمّـيّ عند إطلاقها على النبيّ ﷺ لا يوجد فيه أيّ مسـحة تحقير عـلى الإطلاق، ولا ينظر: إلى أمّيّـة النبيّ محمّد ﷺ على وجه اليقين من قبل المسـتشرقين، ولا حتى من قبل المؤلّفين المسلمين، ويعتقد المؤرّخ والوزير الفارسيّ رشـيد الدين فضل الله[٣] (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م) أنّ من غير المحتمل أن يكون أفضل الكائنـات لم يكن قد عرف فنّ الكتابة[٤]، والمتصوّفون يعتبرون هذا السـؤال نقاشًـا عقيمًا؛ لأنّ النبـيّ محمّدًا ﷺ، باعتباره تاجرًا مكّيًّا، كان يعرف على الأقلّ كيف يقرأ ويكتب... ويرى بعض المسـتشرقين في النبيّ الأمّيّ (نبيّ الوثنيّين)، أي الشـخص الذي أرسل إلى شعب لم يكن لديهم كتـاب، وهذه الفرضيّة تتطابق مع ما سـبق ذكره عن الأمّيّين، ولا تتعـارض مع النبيّ الأمّيّ، والمؤلّفون المسلمون أنفسهم ينسبون عددًا من الحواس إلى عبارة النبيّ الأمّيّ، ويمكن للمرء أن يستشهد على سبيل المثال بمعنى أمّيّ أي القادم من مكّة (أمّ القرى)، بالنسبة لبدويّ فإنّ الأمّيّ هي صفة نسبيّة من أُمّة (أُمم) (الأُمم والشعوب)، وهو تفسير يمكن تبريره نحويًّا[٥]، ووفقًا لهذا

١. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١: ٤١٩.

٢. الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٩: ٧٩.

٣. رشـيد الدين فضل الله الهمذاني، طبيب ووزير السلطان غازان خان وأخيه الجايتو خربندا محمد خان المغولي، ولد في مدينة همذان سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م) على الأرجح، كانت صلة رشيد الدين بغازان في أول أمرها صلة علميّة بحتة، وبعد أن جلس غازان على تخت السلطنة استوزره سنة ٦٩٧هـ، ولما توفي سنة ٧٠٣هـ، جلس على تخت السلطنة أخوه الجايتو خربندا، وأبقى على رشـيد الدين فضل الله في منصب الوزارة، وبعدها تسـلطن ابنه أبو سعيد بن الجايتو عزل رشيد الدين من الوزارة وقتله سنة ٧١٨هـ، ودفن في قلعة رشيديّة في تبريز، بعد اتهامه بدسّ السمّ إلى السلطان، وقتل مع ابنه البالغ من العمر السادسـة عشرة بتهمة أنّه هو من ناول الدواء للسلطان المغوليّ، بلغت تصانيف رشيد الدين اثنين وخمسين مجلدًا، كان المدرّسون يدرّسون فيها، ومنها ترجمة للتوراة، وبنى في تبريز القلعة الرشيديّة المعروفة بربع رشيد وعيّن لها أوقافًا كثيرة وأموالًا، بلغ من العمر عند مقتله ثلاث وسبعون سنة. (ينظر: الأمين، أعيان الشيعة، ٨: ٤٠١-٤٠٢).

٤. مخطوط المجموعة الرشيديّة، المكتبة الوطنيّة في فرنسا قسم المخطوطات العربيّة، باريس، رقم المخطوط ٢٣٢٤، ٢٢٧.

٥. بدويّ، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ١٨-١٩.

الرأي الذي يتوافق بشكل واضح مع القرآن الكريم، كانت رسالة النبيّ بذلك المقصود هي للبشريّة جمعاء وليس للعرب فقط، وكان التفسير الروحيّ لأمّيّة النبيّ كما صاغها المتصوّفون المسلمون هو تحديد نوع شيخ الأُمّة، وهذا الأخير يتلقّى المعرفة مباشرة من الله الإلهام الإلهيّ (العلم اللدنيّ)[١]، وبالتالي يحلّ إلى درجة طفيفة الاعتراف بالوحي النبويّ»[٢].

وردت لفظة (الأمّيّ) في القرآن الكريم ستّ مرّات[٣]، وقد وردت بصيغتها المفردة (أمّيّ) للدلالة على أمّيّة النبيّ ﷺ مرّتين[٤]، وقد وردت بصيغة الجمع مرفوعة (أمّيّون) مرّة واحدة[٥]، ومنصوبة (الأمّيّين) ثلاث مرّات[٦].

ولمعرفة الجذر والمعنى اللغويّ لكلمة الأمّيّ تذكر معاجم اللغة أنّها من (أمم)، فقيل الإِمَّةُ: الحالةُ، والإِمَّة والأُمَّةُ: الشِّرعة والدِّين، وفي التنزيل العزيز: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**﴾ (الزخرف: ٢٢)، وقيل والأُمَّةُ والإِمَّةُ: الدِّينُ كما في قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾ (البقرة: ٢١٣)، أي كانوا على دينٍ واحد، يقال: فلان لا أُمَّةَ له أَي لا دِينَ له ولا نِحْلة له، والأَمُّ: القَصْد، والأُمَّةُ: القَرْن من الناس؛ يقال: قد مَضَتْ أُمَمٌ أَي قُرُونٌ، وأُمَّةُ كلّ نبيّ: مَن أُرسِل إِليهم من كافر ومؤمنٍ، وكلُّ قوم نُسِبُوا إلى نبيّ فأُضيفوا إِليه فَهُمْ أُمَّتُه، وكان إبراهيمُ خليلُ الرحمن، على نبيّنا وعليه السلام، أُمَّةً؛ والأُمَّةُ: الرجل الذي لا نظِير له، يقال: أَمَمْتُ إليه إذا قَصَدْته، فمعنى الأُمَّة في الدِّينِ أَنَّ مَقْصِدَهم مقْصِد واحد، ومعنى الأُمَّة في الرجُل المُنْفَرد الذي لا نَظِير له أن قَصْده منفرد من قَصْد سائر الناس، والأُمَّة: العالِم، وأُمَّةُ الرجل: قومُه، والأُمَّةُ: الجماعة، وأُم القُرَى: مكّة، وقيل: سُمِّيَت بذلك لأَنها كانت أَعظم

---

١. ابن عربي، الفتوحات المكّيّة، ٢: ٦٤٤-٦٤٥.

2. Geoffroy: Ummi (The Encyclopaedia of Islam), 2nd. ed., V.X /P863-864.

٣. البقرة: ٧٨؛ آل عمران: ٢٠، ٧٥؛ الأعراف: ١٥٧-١٥٨؛ الجمعة: ٢.

٤. الأعراف: ١٥٧-١٥٨.

٥. البقرة: ٧٨.

٦. آل عمران: ٢٠، ٧٥؛ الجمعة: ٢.

القُرَى شــأْنًا، وفي التنزيل العزيز: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشــورى: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُــولًا﴾ (القصص: ٥٩)، وكلُّ مدينة هي أُمُّ ما حَوْلها من القُرَى، والأمّيّ: الذي لا يَكْتُبُ، والأمّيّ الذي على خِلْقَة الأُمَّةِ لم يَتَعَلَّم الكِتاب فهو على جِبلَّتِه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ (البقرة: ٧٨)؛ وقيل: معنى الأمّيّ المَنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه أي لا يَكتُبُ، فهو في أَنه لا يَكتُب أمّيّ؛ لأَن الكِتابة هي مُكْتَسَــبَةٌ، فكأَنه نُسِــب إلى ما يُولد عليه، أي على ما وَلَدَته أُمُّه عليه، وقيل لنبيّنا محمّدٍﷺ، الأمّيّ لأَن أُمَّة العرب لم تكن تَكْتُب ولا تَقْرَأ المَكْتُوبَ، وبَعَثَه الله رسولًا وهو لا يَكْتُب ولا يَقْرأُ مــن كِتاب، وكانت هذه الخَلَّة إحْدَى آياته المُعجِــزة؛ لأَنَّهﷺ تَلا عليهم كِتابَ الله مَنْظُومًا، تارة بعــد أُخْرَى، بالنَّظْم الذي أُنْزِل عليه فلم يُغَــيِّره ولم يُبَدِّل أَلفاظَه، وكان الخطيبُ من العرب إذا ارْتَجَل خُطْبَةً ثم أَعادها زاد فيها ونَقَص، فحَفِظه الله على نَبيِّه كما أَنْزلَه، وأَبانَه من سائر مَن بَعَثه إليهــم بهذه الآية التي بايَنَ بَينه وبينهم بها، ففي ذلك أَنْزَل الله تعــالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِــنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّــهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبــوت: ٤٨)، ولَقالوا: إنه وَجَدَ هذه الأَقاصِيصَ مَكْتوبةً فَحَفِظَها من الكُتُــب، وقالوا: إنّ معرفةَ الكِتابَة بعد أمّيّتِهِ لا تُنافِي المُعْجِزَة؛ بل هي مُعْجِزَةٌ أُخْرَى بعد مَعْرِفَة أمّيّته وَتَحَقُّقِ مُعْجِزَته، فإنّ مَعْرِفَته من غير تَقَدُّم تَعْلِيمٍ مُعْجِزَة[1]، الأمّيّة: الغفلة والجهالة، فالأمّيّ منه، وذلك هو قلّة المعرفة، وقيل النبيّ الأمّيّ منسوب إلى الأُمّة الذين لم يكتبوا، ولكونه على عادتهم كقولهم عامّيّ لكونه على عادة العامّة[2].

وذكر المســتشرق ر.پاريه: R.Paret، في تعريفة لمعنى كلمة (أُمّــةُ) فقال: «هي الكلمة التي وردت في القرآن للدلالة على شعب أو جماعة، وهي ليست مشتقّة من الكلمة العربيّة (أمّ)؛ بل هــي كلمة دخيلة مأخوذة من العبريّة (أُمَّا) أو من الآراميّة (أميثا)؛ ولذلك فلا صله بينها وبين

١. الفراهيدي، كتاب العين، ٨: ٤٢٦-٤٢٨؛ الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ٥: ١٨٦٣-١٨٦٧؛ ابن منظور، لسان العرب، ١٢: ٢٢-٣٤؛ الزبيديّ، تاج العروس في جواهر القاموس، ١٦: ٢٦-٣١.

٢. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ٨٧.

كلمــة أمّة التي تدلّ على معانٍ أخرى... وقد تكون الكلمة الأجنبيّة دخلت لغة العرب في زمن متقــدّم بعض الشيء، ومهما يكن من شيء، فإنّ محمدًا أخذ هذه الكلمة واســتعملها، وصارت منذ ذلك الحين لفظًا إسلاميًّا أصيلًا»[١].

وتبــيّن لنا دائرة المعارف الكتابيّة المتخصّصة في بيــان معاني كلمات الكتاب المقدّس بعهديه القديــم والجديد، أنّ معنى كلمة (أمــم) في الكتاب المقدّس: مفردها في العبريّة جوي، والجمع جوييــم[٢] وفي اليونانيّة (أثنوس) ومعناها شــعب أو أمّة، وهي تطلق عادة على الشــعوب غير الإسرائيليّة، ولكنّها تســتخدم أحيانًا في الإشــارة إلى الإسرائيليّين أيضًــا[٣]، وفي العهد الجديد (الإنجيــل) نجد كلمة (أثنوس) اليونانيّة تقابل كلمة جوييم العبريّة في العهد القديم (التوراة) وتترجم (أمم)[٤].

ثانيًا: أمّيّة النبيّ ﷺ في القرآن الكريم والمصادر الإسلاميّة

ســنحاول دراسة كلّ صورة من صور النصوص التي ذكرها القرآن بصورة منفصلة لمعرفة مقاصــد النصّ القــرآنيّ، وبيــان آراء المفسّرين في تلــك النصوص، وبعدها نتعــرّض لما ذكره المستشرقون في بيان معاني هذه النصوص.

الأمّيّ

وردت الصيغة المفــردة لكلمة (الأمّيّ)، مرّتين متتاليتين في القــرآن الكريم، وهي في قولهِ تعالى:

١. ﴿الَّذِيــنَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُــولَ النَّــبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَــهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّــوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

---

١. پاريه، مادة (أُمة)، دائرة المعارف الإسلاميّة، ٢: ٦٣٠-٦٣١. وينظر: پاريه، مادة (أُمة)، دائرة المعارف الإسلاميّة، ٤: ٤١١-٤١٢.

٢. سفر التكوين، ١٤: ١، ٩.

٣. سفر التكوين، ١٢: ٢؛ سفر التثنية، ٣٢: ٢٨؛ سفر صموئيل الثاني، ٧: ٢٣؛ سفر إشعياء، ١: ٤؛ سفر صفنيا، ٢: ٩.

٤. مجموعة من علماء اللاهوت، دائرة المعارف الكتابيّة، ١: ٤١٧.

٢. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وقد اختلف المفسرون في بيان المراد من معنى كلمة (الأمّيّ) في الآيتين أعلاه، فقيل: معنى الأمّيّ الذي لا يقرأ ولا يكتب[١]، وقيل هو الذي على خلقة أُمّهِ لم يتعلّم الكتابة، وهو على جبلّته[٢]، وذكر أنّ أصلها أُمّتي، فسقطت التاء من النسبة، وقيل لأنّه منسوب لأمّ القرى وهي مكّة[٣]، وكونه أمّيًّا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه منها: أنّهﷺ كان يقرأ عليهم كتاب الله منظومًا مرّة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثمّ أعادها، فإنّه لا بدّ وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير، ومع أنّه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، لو كان يحسن الخطّ والقراءة لصار متّهمًا في أنّه ربما طالع كتب الأوّلين، فحصّل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلمّا أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلّم ولا مطالعة، كان ذلك من المعجزات، وأنّ تعلّم الخط شيء سهل، فإنّ أقلّ الناس ذكاء وفطنة يتعلّمون الخطّ بأدنى سعي، ثم إنّه آتاه علوم الأوّلين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوّة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلّم الخطّ الذي يسهل تعلّمه على أقلّ الخلق عقلًا وفهمًا، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادّتين جاريًا مجرى الجمع بين الضدّين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات[٤].

لا نجد رؤية واضحة عند المفسّرين، وهذا ما دفع بعض المستشرقين لاستغلال هذه الصورة المضطربة عن هذا المفهوم أو المصطلح القرآنيّ، فكانت مصادرنا الإسلاميّة هي سبب ذلك

١. مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ١: ٤١٨؛ الطبريّ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٩: ١٠٩؛ السمرقندي، تفسير السمرقنديّ، ١: ٥٦٩؛ الثعلبي، الكشف والبيان في تفسير القرآن، ٤: ٢٩١.

٢. السمرقنديّ، تفسير السمرقنديّ، ١: ٥٦٩؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن٢: ٤٢١، ٤: ٥٥٩.

٣. الثعلبيّ، الكشف والبيان، ٤: ٢٩٢.

٤. الفخر الرازيّ، التفسير الكبير، ١٥: ٢٣.

الاضطراب كي نكون دقيقين في تحديد سبب المشكلة، ووجب مناقشة مصادرنا الإسلاميّة، وبعدها ننتقل إلى ما ذكره المستشرقون، ولنبدأ في المصدر الأوّل والأصدق للسيرة النبويّة، وهو القرآن الكريم، فالخطاب القرآنيّ في الآيتين السابقتين من سورة الأعراف التي ورد فيها مصطلح النبيّ الأمّيّ، الأولى تتحدث عن اتّباع بعض اليهود والنصارى لهذا النبيّ الأمّيّ المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، سواء أكانت هذه الكتابة بالاسم أم بالإشارة إلى ذلك النبيّ بصفته، أمّا الآية الثانية، فهي تأمر النبيّ ﷺ بالقول إنّه رسول الله إليكم جميعًا، وجميعًا تدلّل على عدم اقتصار الدعوة على فئة أو جماعة دون أخرى، ويطلب منهم الإيمان بالله ورسوله الذي أعلن هذه الرسالة العالميّة، ولا وجود لأيّ إشارة لعدم معرفة الرسول ﷺ القراءة والكتابة، فما الذي دفع المفسّرين إلى تفسير الأمّيّ بعدم معرفة القراءة والكتابة؟

اعتمد بعض الباحثين على مجموعة من الآيات القرآنيّة، واستدلوا بها على عدم معرفة النبيّ ﷺ القراءة والكتابة، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (العنكبوت: ٤٨)، فذكروا أنّ ما كنت تتلو يعني تقرأ من قبله، ولا تخطّهُ بيمينك أي لم تكن تكتب، ولو كنت تقرأ أو تكتب إذًا لارتاب المبطلون، فقيل كان أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب، ولو كان كذلك لقال أهل الكتاب إنّ الذي نجده في كتبنا أمّيّ لا يكتب ولا يقرأ، وذكروا وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة، وقيل الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ (الفرقان: ٥)[١].

وقد علّق الشيخ الطوسيّ (ت٤٦٠هـ) على مثل تلك الأقوال التي تدّعي عدم معرفته القراءة والكتابة من خلال هذه الآية (سورة العنكبوت، ٤٨)، فقال: (والآية لا تدلّ على ذلك؛ بل فيها أنّه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه، كما لا يكتب من لا يحسنه، وليس ذلك بنهي، لأنّه لو كان نهيًا لكان الأجود أن يكون مفتوحًا...، ولو أفاد أنّه لم يكن

١. الطبريّ، جامع البيان، ٢١: ٧؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ١٥١؛ الثعلبيّ، الكشف والبيان، ٧: ٢٨٥-٢٨٦؛ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ٨: ٢١٦؛ الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣: ٢٠٨؛ الفخر الرازيّ، التفسير الكبير، ٢٥: ٧٧؛ السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٥: ١٤٨.

يحسن الكتابة قبل الإيحاء، لكان دليله يدلّ على أنّه كان يحسنها بعد الإيحاء إليه، ليكون فرقًا بين الحالتين)[١].

فعدم القراءة والكتابة لا تعني نفيها كما ذكر الطوسيّ، والآية في صدد بيان الجاحدين بآيات الله بأنّ الذي أُنزل عليه هذا الكتاب لم يكن يتلو من قبلِهِ من كتاب من الكتب السماويّة السابقة لهذا الكتاب الذي أُنزل، ولا كان يخطّهُ بيمينه، ولو كان يتلو ويخطّ من تلك الكتب السماويّة السابقة، لقالوا إنّ هذا الذي يتلوه قد أخذهُ من تلك الكتب السابقة، والآيات بصدد مجادلة أهل الكتاب، كما أنّ إشارة الآية ١٥٧ من سورة الأعراف لا تدلّ على عدم المعرفة بالقراءة والكتابة، بل الآية أريد بها معنى آخر، ولا توجد ولو إشارة واحدة في التوراة والإنجيل أنّ النبيّ الموعود كان لا يقرأ ولا يكتب، أمّا أنّ الآية معطوفة على ما ورد في سورة الفرقان الآية الخامسة[٢]، فالآية في سورة الفرقان على العكس من ذلك تمامًا، فهي تدلّ على معرفة النبيّ ﷺ بالقراءة والكتابة، وإلا كيف يُتهم بكتابة الأساطير وهو لا يعرف الكتابة؟!

واعتمدوا أيضًا على الأحاديث النبويّة، فقد نسب للنبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّا أمّة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعنى تمام ثلاثين»[٣].

ورد هذا الحديث في باب رؤية الهلال لصوم شهر رمضان؛ لأن العرب لم يكونوا يدوّنون ذلك؛ بل كان اعتمادهم على الرؤية بالعين المجرّدة، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)، والحديث يقصد به حساب سير النجوم بالاعتماد على رؤية الهلال، وهذا يدلّ على عدم اتباع منهج معلوم محسوب ومدروس في التوقيت[٤]، إلّا أنّهم استندوا عليه في بيان عدم معرفة العرب للقراءة والكتابة،

١. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٨: ٢١٦.

٢. ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، الفرقان: ٥.

٣. ابن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ٢: ٤٣؛ البخاريّ، صحيح البخاريّ، ٢: ٢٣٠؛ مسلم، صحيح مسلم، ٣: ١٢٤.

٤. العسليّ، مفهوم الجاهليّة والأمّيّة دراسة في الكتابة عند أهل مكّة، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلاميّة المبكرة، ٢٠٨.

وبالتالي فالنبيّ ﷺ من تلك الأُمّة، لكن هل كلّ العرب لا تعرف القراءة والكتابة؟.

كيف لا يعرفون وقد ورد في القرآن الكريم أطول آية في سورة البقرة[١] تطلب من الناس تسجيل كافّة المعاملات والتصرّفات وكتابتها نقدًا أو دينًا، صغيرة كانت أم كبيرة، فكيف تطلب هذه الآيات من الناس تحقيق كلّ ذلك دون وجود قسم من المتعلّمين في صفوفهم يكتبون ويدوّنون عن أنفسهم أو عن الآخرين[٢]، كما أنّ مكّة بيئة تجاريّة، فتحتاج إلى معرفة القراءة والكتابة، وقد وردت كلمات الكتابة ومشتقّاتها في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرّة[٣]، والقراءة ومشتقّاتها نحو تسعين مرّة[٤]، وبأساليب متنوّعة مما يدلّ على أنّ الكتابة والقراءة كانت معروفة على نطاق واسع في مكّة، وأنّ قلّة المعلومات المكتوبة التي وصلت إلينا لا تعدّ دليلًا على جهل العرب بالكتابة والقراءة، أو على قلّة انتشارها بينهم[٥]، وقد عُثر في خزانة المأمون العبّاسيّ (١٩٨-٢١٨هـ) على كتاب بخطّ عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم فيه ذكر حقّ عبد المطلب على رجل حميريّ[٦]، وقد ورد عند البلاذريّ (ت٢٧٩هـ) قوله: «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلًا كلّهم يكتب»[٧]، فضلًا عن وجود عدد من النساء يعرفن القراءة والكتابة[٨]، وعدّد أحد الباحثين مئة وأربعة عشر من الكتبة من أهل مكّة قبل الإسلام، وفي عصر النبيّ ﷺ[٩]، ولعلّ هذه الإشارة لمن عُرف منهم وليس جميعهم، وهناك إشارات لعدد من الصحف منها

---

١. البقرة: ٢٨٢.

٢. اليوسفيّ، موسوعة التاريخ الإسلاميّ، ١: ٧٨.

٣. عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ٥٩١-٥٩٥.

٤. م. ن، ٥٣٩-٥٤٠.

٥. العسليّ، مفهوم الجاهلية والأمّيّة، ٢٠٨.

٦. ابن النديم، الفهرست، ٨. وينظر: كذلك إلى أوّل من تعلّم الخطّ والعربيّة من العرب العاربة من أبناء إسماعيل ؟ع؟، م. ن، ٧-٨.

٧. البلاذري، فتوح البلدان، ٣: ٥٨٠.

٨. م. ن، ٥٨٠-٥٨١.

٩. العسليّ، مفهوم الجاهليّة والأمّيّة، ٢١٩-٢٢٧.

صحيفة (كتاب) المقاطعة لبني هاشم في مكّة[١]، وصحيفة المدينة (دستور المدينة) بعد هجرة الرسول إليها[٢]، كما أنّ الأسرى الفقراء من قريش الذين وقعوا في قبضة المسلمين في معركة بدر الكبرى في العام الثاني للهجرة، والذين لم يستطيعوا أن يقدّموا فدية نقديّة لإطلاق سراحهم، كلّف كلّ واحد منهم -ممن يجيد القراءة والكتابة- تعليم عشرة من أطفال المسلمين في المدينة القراءة والكتابة لقاء إطلاق سراحهم[٣]، وهذه الأدلّة التي تدلّ على معرفة العرب بالقراءة والكتابة قبل البعثة وبعدها لا تعني نفي وجود الذين لا يجيدونها، لكنّها تثبت على الأقلّ وجود طبقة في المجتمع الجاهليّ كانت تجيد القراءة والكتابة، فكيف يصف أمّة العرب جميعها بأنّها أُمّة أمّيّة لا تعرف القراءة والكتابة؟! وأنّ هذه الأدلّة تفيد أنّ القراءة والكتابة كانت موجودة وبنسبة لا بأس بها، حيث وجود عدد من المتعلّمين، ووعي بأهمّيّة القراءة والكتابة؛ لذا فتسمية العرب بالأمّيّين لعدم معرفتهم القراءة والكتابة تسمية لا تطابق الواقع[٤].

واعُتمد على عدم معرفة النبيّ ﷺ القراءة والكتابة على بعض النصوص الروائيّة، ومنها روايات نزول الوحي، فقد شكّلت رواية (ما أقرأ أو ماذا أقرأ)[٥]، أو (كيف أقرأ)[٦]، و(ما أنا بقارئ)[٧]، الصورة الرئيسيّة لبيان عدم معرفته ﷺ بالقراءة والكتابة، ولعلّ رواية (أقرأ - ماذا أقرأ - كيف أقرأ - ما أنا بقارئ) هي إحدى المرويّات الإسرائيليّة التي دُسّت في السيرة النبويّة لما ورد في التوراة (أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له إقرأ هذا، فيقول لا أعرف

١. ابن هشام، السيرة النبويّة، ١: ٢٣٤، ٢٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٠٨.

٢. ابن هشام، السيرة النبويّة، ٢: ٣٤٨-٣٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٢٧٣-٢٧٦.

٣. ابن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ١: ٢٤٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٣٩٧- ٣٩؛ اليوسفي، موسوعة التاريخ الإسلاميّ، ١: ٧٩.

٤. للمزيد من التفاصيل. ينظر: النصر الله، الجاهليّة فترة زمنيّة أم حالة نفسيّة؟، ٥-٨. العسليّ، مفهوم الجاهليّة والأمّيّة، ٢١١-٢٢٧.

٥. ابن هشام، السيرة النبويّة، ١: ٥٥١؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٤٨-٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٨.

٦. البيهقي، دلائل النبوّة، ٢: ١٤٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٦٣: ٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٩.

٧. ابن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ٦: ٢٣٣؛ البخاري، صحيح البخاريّ، ١: ٣؛ ٦: ٨٨؛ ٨: ٦٧؛ مسلم، صحيح مسلم، ١: ٩٧؛ البيهقيّ، دلائل النبوة، ٢: ١٣٥.

الكتابة)[١]، وصيغت بصورة إسلاميّة على منوالها، أمّا ما يقال إنّ عدم معرفته القراءة والكتابة من معجزاتهِ، فالقرآن الكريم وحده معجز لا غير.

وقيل إنّه منسوب لأهل مكّة وهي أمّ القرى، وقد جاءت هذه النسبة على اعتبار أنّ النسبة في الكلمات المركّبة تكون للجزء الأوّل، وهذا موضع خلاف بين اللغويّين[٢]؛ إذ إنّ من الكلمات من تنسب إلى الجزءين، ومنها ما ينسب إلى الجزء الأوّل، ومنها ما ينسب للجزء الثاني، ويُذكر أنّ النسبة في الكلمات المركّبة إن كان المضافُ أبًا أو أمًّا أو ابنًا طرحت المضاف، ونُسبت إلى المضافِ إليه، فنقول في أبي بكرٍ وأمّ كلثومٍ وابن عباسٍ (بكريّ وكلثوميّ وعباسيّ)[٣]، وعلى هذا تكون النسبة في كلمة أمّ القرى إلى الجزء الثاني (قرويّ)، ولم يعرف عن سكان مكّة مثل هذا اللقب أو النسب لأمّ القرى، وما ينطبق على مكّة يمكن أن ينطبق على غيرها، فكلّ مدينة هي أُمّ ما حولها من القرى.

ويرى الباحثان أنّ معنى النبيّ الأمّيّ دلالة على الذي لا نظير له، فهو النبيّ الأُمَمْيّ، أي المبعوث لكلّ الأُمم، وحرف الميم في كلمة (الأمّيّ) من الحروف المشدّدة، وهو عبارة عن حرفين من جنس واحد، فالأصل هو (النبيّ الأُمَمْي)، وهما حرفان أُدغما، أحدهما ساكن، والآخر متحرّك، فصارت الكلمة (النبيّ الأمّيّ) بتشديد الميم، وهذا ما ورد في الجذر اللغويّ للكلمة، فهي مأخوذة من (أمم)، جمع لكلمة أُمّة، وعبارة النبيّ الأُمَمْي تدلّ على عالميّة الدعوة الإسلاميّة، فهو خاتم الرسالات السماويّة، وهذا ما بان واضحًا في قولهِ تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ (الأعراف: ١٥٨)، فالقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ خطاب يتناول الجميع، المؤمن والكافر، الكتابيّ والوثنيّ، وهذا يقتضي أنّهُ مبعوث لجميع الناس، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾، ففي كلمة ﴿**جَمِيعًا**﴾ دلالة على أنّ النبيّ ﷺ كان

١. سفر إشعياء، ٢٩: ١٢.

٢. النصر الله، الجاهليّة فترة زمنيّة أم حالة نفسيّة؟، ٨.

٣. الغلاييني، جامع الدروس العربيّة، ٢: ٧٩-٨٠.

مبعوثًــا إلى الخلق أجمع، فليس فيها دلالة على غيره من الأنبيــاء ﷺ كان مبعوثًا إلى كلّ الخلق[١]، كما ورد في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨)، وهو رحمة للخلق أجمعين كما ورد في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَــلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقد ذهب إلى مثل هذا الرأي عبد الرحمن بدويّ[٢].

أمّيّونَ

جــاء في القرآن الكريم كلمة (أمّيّونَ) مرّة واحدة في ســورة البقــرة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّــونَ لَا يَعْلَمُــونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨)، واختُلف في تفســير كلمة أمّيّونَ، فقالوا: أمّيّون هم اليهود، وقيل العرب، وقيل هم المنافقون واليهود، والأمّيّون هم من لا يحسنون القراءة والكتابة، وقيل هم من لا يقرّ بكتاب ولا رسول، وقيل هم الذين لا يعلمون معــاني الكتاب، يعلمونه حفظًا وقــراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه، وذكــر أنّهم الأُمم الذين لم ينزل عليهم كتاب، وســمّوا أمّيّين لجحودهم كتاب الله، وقيل هم غير العالمين بمعاني الكتاب، يعلَمونها حفظًا وتلاوة، لا رعاية ودراية وفهمًا لما فيه[٣].

والمتتبّــع لآيات القرآن الكريم الســابقة لهذه الآيــة يجد أنّها تتحدّث عــن الجدل والتعنّت اليهوديّ لنبيّ الله موسى ﷺ ونكرانهم نِعَمَ الله التي أنعمها على بني إسرائيل، ثمّ يصف قلوبهم، بأنّها كالحجارة أو أشــدّ قسوة منها[٤]، وفي الآيات الثلاث السابقة للآية ثمان وسبعون من سورة البقرة، ينتقل الخطاب إلى المســلمين بعد أن كانوا يطمعون أن يؤمن هؤلاء اليهود بما أنزل الله، وبعد أن كان اليهود يســمعون كلام الله ويحرّفونه من بعد ما عقلوا وفهموا مراد الله، ثمّ يفضح

١. الفخر الرازيّ، التفسير الكبير، ١٥: ٢٣-٢٨.

٢. بدويّ، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ١٨.

٣. الطبريّ، جامع البيان، ١: ٥٢٧-٥٣٠؛ الراغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، ٨٧؛ الثعلبيّ، الكشف والبيان، ١: ٢٢٣؛ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ١: ٣١٧-٣١٨؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ١: ٢٧٥-٢٧٦؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير ٣: ١٣٩؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٢: ٥.

٤. البقرة: ٤٧-٧٤.

الله سرّهم إذا لقوا الذين آمنوا، فيبطنون الكفر ويقولون آمنّا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض يلوم بعضهم بعضًا لأنّهم يحدّثونهم بما أنزل الله عليهم بما موجود في التوراة؛ لذلك خاطبهم الله بأنّه يعلم سرّهم وما يعلنون[1]، ثمّ يأتي الخطاب بأنّ منهم (أمّيّون)، أي من اليهود، استنادًا لسياق الآيات السابقة لها واللاحقة، وكلمة (أمّيّونَ) هنا لا تشير إلى العرب؛ بل تشير إلى اليهود، وترميهم بعدم معرفتهم الكتاب المنزل، أي لا يعلمون ما فيه، ولا يدرون ما أودعه الله إيّاه من الحدود والأحكام والفرائض، والكتاب المعنيّ هنا التوراة، وقيل: إلّا أماني، أي يتخرّصون الكذب، ويقولون الباطل والتمنّي في الوضع هو تخلّق الكذب وتخرّصه، ويقوّي ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، فبيّن أنّهم يختلقون الكذب ظنًّا لا يقينًا[2]، ولا تعني كلمة (أمّيّونَ) عدم معرفتهم القراءة والكتابة -أي اليهود-؛ لأنّهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولوا هذا من عند الله[3]، لذا فهؤلاء الأمّيّونَ يجيدون الكتابة، ولا تعني الأمم الذين لم ينزل عليهم كتاب، لأنّ اليهود من أهل الكتاب والخطاب القرآنيّ كان يعنيهم بذلك الخطاب، ولا تعني من لا يقرّ بكتاب ولا رسول؛ لأنّهم كانوا يقرّون بالتوراة وأنبياء بنبي إسرائيل، لذا فكلمة (أمّيّونَ) تعني عدم المعرفة بالكتاب المنزل عليهم (التوراة) إلّا تخرّصًا وكذبًا وما يتّبعون إلّا الظنّ.

الْأُمِّيِّينَ

- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠).

ذكر المفسّرون في معنى (الْأُمِّيِّينَ) في هذه الآية، فقيل هم العرب والذين لا كتاب لهم، وقيل هذه الآية تشمل جميع المخالفين لدين محمّدﷺ؛ وذلك لأنّ منهم من كان من أهل الكتاب، سواء أكان محقًّا في تلك الدعوى كاليهود والنصارى، أو كان كاذبًا فيها، ومنهم من لم يكن من أهل الكتاب وهم عبدة الأوثان، إنّما وصف مشركي العرب بأنّهم أمّيّون لوجهين؛ الأوّل: أنّهم لمّا لم

١. البقرة: ٧٥-٧٧.

٢. الطبرسيّ، مجمع البيان، ١: ٢٧٦-٢٧٧.

٣. البقرة: ٧٩.

يدعوا لكتاب إلهيّ، وُصِفوا بأنّهم أمّيّون تشبيهًا بمن لا يقرأ ولا يكتب والثاني: أن يكون المراد أنّهم ليسوا من أهل القراءة والكتابة، فهذه كانت صفة عامّتهم، وإن كان فيهم من يكتب فنادر من بينهم[١].

بيّنا في ما سبق أنّ كلمة (أمّيّونَ) لا تعني عدم معرفة القراءة والكتابة، والآية لا تشير إلى العرب؛ بل إلى أهل الكتاب، كذلك هنا (الْأُمِّيِّينَ) لا تعني عدم معرف القراءة والكتابة، لأنّها ليست بصدد بيان عدم معرفتهم لها، وهي في بيان المحاججة مع المعاندين للرسالة الإسلاميّة، وحسب ما ذكر المفسّرون أنّها تشير إلى الذين لا كتاب سماويّ لهم، وقيل هم العرب، والمتتبّع لآيات سورة آل عمران السابقة لها يجدها تتحدّث عن اختلاف أهل الكتاب، رغم أنّ الرسالات السماويّة ذات هدف واحد، وأنّ الدين عند الله الإسلام بمعناه العامّ لا الخاصّ، وعرف عن أهل الكتاب كثرة المحاججة والجدل مع الرسول ﷺ ومع أنبيائهم من قبلِهِ، وهذه الآيات مدنيّة متعلّقة بقدوم وفد نجران[٢] إلى المدينة[٣]، فيقول الله جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات، فأسند أمرك إلى ما كُلّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك؛ لذا فإنّه أعرض عن المحاجّة؛ لأنّه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجّة على صدقه قبل نزول هذه الآية مرارًا وأطوارًا، فهذه السورة مدنيّة، وكان قد أظهر لهم المعجزات بالقرآن، بمعنى إنّا بالغنا في تقرير الدلائل والبينات، وإن أعرضتم فإنّ الله بالمرصاد، فهذا الطريق قد يذكره المحتجّ المحقّ مع المبطل المصرّ في آخر كلامه[٤]، لذا أراد إلزامهم -أي وفد نجران- على ما أقرّوا به من أنّ الله خالقهم؛ فلذلك قال (أسلمت وجهي لله)

---

١. مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ١: ١٦٢؛ الطبري، جامع البيان، ٣: ٢٩٠-٢٩١؛ الثعلبي، الكشف والبيان، ٣: ٣٥-٣٦؛ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ٢: ٤٢٠-٤٢١؛ الزمخشريّ، الكشاف، ١: ٤١٩؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٢: ٢٦١؛ الفخر الرازيّ، التفسير الكبير، ٧: ٢٢٧-٢٢٨؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٤: ٤٥.

٢. نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكّة، سُمّي بنجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب بن يعرف بن قحطان؛ لأنه كان أوّل من عمرها ونزلها. ينظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحمويّ الروميّ البغداديّ (ت ٦٢٦هـ)، ٥: ٢٦٦.

٣. ابن هشام، السيرة النبويّة، ٢: ٤١٢-٤١٧.

٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٧: ٢٢٥، القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٤: ٤٥.

أي انقدت لأمره في إخلاص التوحيد له؛ لذا فهو ذكر الأصل الذي يلزم جميع المكلفين الإقرار به[١]، فالخطاب كان في الآية مع الذين أُوتُوا الكتاب، والمحاجّة والجدل كان معهم، فكيف أشرك العرب أو الذين لا كتاب سماويّ لهم في تفسير الآية كما ذكر المفسّرون؟ وهل من وجود لمن لا دين سماويّ لهم أو مشركي العرب في مدينة الرسول (المدينة المنورة) بعد فتح مكّة، وفي العام الذي عُرف بعام الوفود في السنة التاسعة من الهجرة[٢]؟، باعتبار أنّ الآية تطلب من النبيّ ﷺ مخاطبتهم بالقول ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ (آل عمران: ٢٠)، فكيف يخاطب من هو غير موجود من الذين لا كتاب سماويّ لهم أو مشركي العرب كما ذكر المفسّرون؟، إلّا إذا كان الخطاب يشمل الوفود من غير أهل الكتاب التي وفدت إلى المدينة، ولم يثبت محاجّة أيّ وفد قدم للنبيّ ﷺ سوى وفد نجران، والآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية المعنيّة تتحدّث عن جدل أهل الكتاب لا غير، ولعلّ المقصود بكلمة ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ هم أهل الكتاب (النصارى) غير العارفين بمعاني الكتاب يعلمونه حفظًا وقراءة بلا فهم، ولا يدرون ما فيه كما في ما سبق في كلمة (أمّيّون)، أو يعلمون بعض ما في الكتاب، وقد أشار الباري في الآيات اللاحقة في معرض الذمّ إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣)، فقد ضرب بهم مثلًا لأنّهم يعلمون بعض ما في الكتاب[٣]، وهي تشير إلى حادثة سابقة لحادثة وفد نجران؛ لذا ضرب بهم مثلًا، ولا يوجد ما يدلّ في الآية على أنّ المقصود بكلمة ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ هم مشركو العرب أو الذين لا كتاب سماويّ لهم، لأنّ الخطاب في الآيات متعلّق بأهل الكتاب، ونزول

١. الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ٢: ٤٢٠-٤٢١؛ الطبرسيّ، مجمع البيان، ٢: ٢٦١.

٢. اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، ٢: ٨٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥: ٦٣. وقيل إنّ هذه السورة مدنيّة، وقيل إنّ من أوّلها إلى رأس ونيف وستين آية نزلت في قصّة وفد نجران لما جاؤوا يحاجون النبيّ ﷺ، في السنة التاسعة من الهجرة. ينظر: الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ٢: ٣٨٨؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٧: ١٦٥.

٣. الطبريّ، جامع البيان، ٣: ٢٩٥؛ السمرقنديّ، تفسير السمرقنديّ، ١: ٢٢٨؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٢: ٤٢٥؛ الزمخشريّ، الكشّاف، ١: ٤٢٠؛ الطبرسيّ، مجمع البيان، ٢: ٢٦٥؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٧: ٢٣١-٢٣٢؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٤: ٥٠.

الآيات في السنة التاسعة من الهجرة في العام الذي عرف بعام الوفود، وقدوم وفد نجران إلى المدينة في ذلك العام.

- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥).

ذكر المفسّرون في تفسير الآية أعلاه وبيان كلمة ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ فيها أنّ اليهود قالت ليس فيما أصبنا من أموال العرب سبيل، وقد أحلّها الله لنا، أي ذكرها موجود في التوراة، وقيل إنّ الْأُمِّيِّينَ هم الذين ليس معهم كتاب، وقيل الذين ليس على ديننا فأموالهُم لنا حلال، وكانوا يستحلّون من خالفهم في دينهم، ويدّعون أنّ الله لم يجعل لهم في كتابهم حرمة، وقيل إنّهم يفعلون ذلك لأنّهم مبالغون في التعصب لدينهم، فلا جرم يقولون بحلّيّة قتل المخالف وأخذ ماله بأيّ طريق كان، فاليهود قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: ١٨) والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل لأنّ اليهود إنّما ذكروا هذا الكلام لا مطلقًا لكلّ من خالفهم، بل للعرب الذين آمنوا بالرسولﷺ، وقيل إنّ اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالًا، فلما أسلم أرباب الحقوق، قالت اليهود ليس لكم علينا شيء لأنّكم أسلمتم، وذكر إنّ اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأمّيّين سبيل -أي حرج في ظلمهم- لمخالفتهم إيّانا. وادعوا أن ذلك في كتابهم، فكذّبهم الله بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

بعد بيان أقوال المفسّرين في الآية القرآنيّة يتضح أنّ المقصود بكلمة الْأُمِّيِّينَ هنا بكلام المفسّرين هم العرب أو الذين ليس لديهم كتاب سماويّ يتّبعونه، أو المخالفين لليهود، وبما أنّ القول هو قول أهل الكتاب كما هو واضح في الآية القرآنيّة، وبما أنّ المفسّرين متّفقون على أنّ

١. ينظر: الطبريّ، جامع البيان ٣: ٤٣٠-٤٣٣؛ القمّيّ، تفسير القمّيّ، ١: ١٠٦؛ السمرقنديّ، تفسير السمرقنديّ، ١: ٢٤٩؛ الثعلبيّ، الكشف والبيان، ٣: ٩٤-٩٧؛ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ٢: ٥٠٤-٥٠٥؛ الزمخشريّ، الكشّاف، ١: ٤٣٨؛ الطبرسيّ، مجمع البيان، ٢: ٣٢٦؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٨: ١٠٦-١١٠؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ٤: ١١٥-١١٩.

أصحاب القول هم اليهود؛ لذا يتوجب علينا تفسير هذه الكلمة وفق التفسيرات التوراتيّة لهذه الكلمة، ومعنى الأُمم هي تطلق عادة على الشعوب غير الإسرائيليّة[١]؛ لذا تفسير كلمة الْأُمِّيِّينَ هنا يختلف عما سبق من تفسير؛ لأنّ هذا القول هو قول أهل الكتاب ونقل على لسانهم في هذه الآية الكريمة، وذُكر أنّهم قالوا: إنّ جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة، وكانوا كاذبين في ذلك، وكانوا يعلمون بكذبهم فيه، ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه أفحش، وهم يعلمون أنّ الخيانة محرّمة[٢]؛ لذا خاطبهم الله بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥)، لذا فقد فضح تزويرهم وكذبهم وتحريفهم للتوراة، وفضح بعدها كذبهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨)، وتبيّن لنا الأساليب اليهوديّة في تحريف التوراة والكذب على الله مع علمهم بأنّ ما يقولون ليس من الكتاب.

- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

ذكر في تفسير كلمة ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ في هذه الآية أنّها تعني العرب الذين لا يقرأون الكتاب ولا يكتبون بأيديهم، وقيل هذا الحيّ من العرب أُمّة أمّيّة ليس فيها كتاب، فبعث الله نبيّه رحمة وهدى يهديهم، وإنّما سمّيت أُمّة محمّد ﷺ ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾؛ لأنهُ لم ينزل عليهم كتاب، وقيل الأمّيّة هي الغفلة والجهالة وقلّة المعرفة، وذكر أنّ كلمة ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ هم أهل مكّة؛ لأنّها تسمى أمّ القرى، والأمّيّ منسوب إلى ما ولد من أمّة لا يحسن الكتابة ووجه النعمة في جعل النبوة في أمّيّ موافقة لما تقدّمت البشارة به في كتب الأنبياء السالفة، وقيل بعث رجلًا أمّيًّا في قوم أمّيّين، وقيل نسب إلى أُمّة العرب لأنّهم أمّة أمّيّون لا كتاب لهم، ولا يقرأون كتابًا ولا يكتبون[٣].

---

١. مجموعة من علماء اللاهوت، دائرة المعارف الكتابيّة، ١: ٤١٧.

٢. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٨: ١٠٩.

٣. مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ٣: ٣٥٩-٣٦٠؛ الطبريّ، جامع البيان، ٢٨: ١١٩-١٢٠؛ القمّيّ، تفسير القمّيّ،

وهكـذا نجد أنّهم غير متّفقين على معنى كلمة ﴿الْأُمِّيِّـينَ﴾ في الآية الكريمة، فإن قلنا إنّهم الذين لا يقرأون الكتاب ولا يكتبون بأيديهم، وقد مرّ بنا فيما سبق أنّ العرب كانت تقرأ وتكتب أو عـلى الأقلّ كانت هناك فئة من المجتمع الجاهليّ تجيد القـراءة والكتابة، أمّا إذا كان المقصود قـراءة الكتاب المقدّس من توراة أو إنجيل، فهذا ورقة بن نوفل[١] كان يكتب الكتاب بالعبرانيّة من الإنجيل ما شاء أن يكتب[٢]، وأخت ورقة بن نوفل[٣] قرأت الكتب، وكذلك فاطمة بنت مر الخثعميّـة[٤]، وهذا ضمام بن ثعلبة[٥] يقول قرأت الكتب والتوراة والإنجيل والزبور[٦]، وعبيد الله

٢: ٢٦٦؛ السـمرقنديّ، تفسير السـمرقنديّ، ٣: ٤٢٤؛ الراغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، ٨٧؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ١٠: ٤؛ الزمخشريّ، الكشّاف، ٤: ١٠٣؛ الطبرسيّ، مجمع البيان، ١٠: ٦-٧؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٠: ٣-٤؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ١٨: ٩١-٩٢.

١. ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشيّ، وهو ابن عم السيدة خديجة زوج النبيّ ﷺ، ذكر أنّه كان شاعرًا في الجاهليّة، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ ويكتب من الإنجيل ما شاء، ذكر في من تركوا عبادة الأصنام في الجاهليّة، واختلـف هل دخل الإسـلام أو توفّي قبل ذلك، وقيل أدرك البعثة النبويّة ومـات بعدها، وقيل قد تنصّر ومات على النصرانيّة بعد أن عميَ، له ذكر في روايات بدايات نزول الوحي في مكّة، فتذكر الروايات ذهاب السيدة خديجة زوج النبـيّ ﷺ إلى ورقة حتى طمأنها وأكّد لها أنّ هذا الذي يأتي النبيّ ﷺ هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسـى عليه السلام، مات ورقة ولم يعقّب، واختلف في مكان وفاته، قيل خرج إلى الشام وتوفّي هناك، وقيل مات في مكّة بعد البعثة.

٢. البخاريّ، صحيح البخاري، ١: ٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٥: ٤٣٦.

٣. واختلف في اسـمها فقيل قتيلة بنت نوفل بن أسـد بن عبد العزى بن قصي، وقيل هي رقيقة، وذكر أنها هي المرأة التي عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب والد النبيّ ﷺ بعد أن توسّمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودّت أن يكون ذلك متّصلًا بها لمّا كانت تسـمع من أخيها من البشـارات بوجود محمّد ﷺ، وأنّه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه، وقيل ليست هي بل هي فاطمة بنت مر الخثعميّة.

٤. فاطمة بنت مر الخثعميّة، قيل هي من أهل تبالة، وقيل هي كاهنة متهوّدة، وذكر أنّها من أجمل الناس وأشبّهم وأعفهم، قد قرأت الكتب، وكان شباب قريش يتحدّثون إليها، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله بن عبد المطلب والد النبيّ ﷺ فعرضت عليه نفسها، وقيل لم تكن هي بل أخت ورقة بن نوفل.

٥. ضمام بن ثعلبة السعديّ، قدم على النبيّ ﷺ سنة خمس، وقيل في سنة سبع، وقيل في سنة تسع من الهجرة، بعثه بنو سعد بن بكر وافدًا على النبيّ ﷺ، فسـأله عن الإسلام وفرائضه فريضة فريضة حتى أسلم، ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا، له حديث في وصف الإسلام ودعائمه، وأنّه من أتى بها دخل الجنة.

٦. الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩: ٣٧٠.

بن جحش[١] كان قد قرأ الكتب فمال إلى النصرانيّة[٢]، فحمل العرب بعدم القراءة والكتابة أو عدم قراءة الكتب السماويّة السابقة لا يمكن تعميمهُ على العرب.

أمّا بالنسبة إلى ما ورد من أنّ أمّة العرب أمّة أمّيّة لا كتاب سماويّ لهم، فنقول إنّ مكّة هي مركز الديانة الحنيفيّة، ولا شكّ أنّ دعوة إبراهيم عليه السلام ورسالة الأنبياء من بعده هي دعوة واحدة، وإن اختلف في الكتاب التشريعيّ السماويّ، وقد قرن الله صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام في القرآن الكريم[٣]، وقد وصّى إبراهيم عليه السلام بنيه من بعده باتّباع هذه الرسالة السماويّة[٤]، وإسماعيل عليه السلام هو ابن النبيّ إبراهيم عليه السلام، والنبيّ صلى الله عليه وآله من هذه الذرّيّة الطاهرة، فالكتاب السماويّ عند العرب هو صحف إبراهيم عليه السلام، ولم يكن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط هودًا أو نصارى كما ورد في القرآن[٥]، حتى يمكن القول إنّ العرب لم يكن لهم كتاب سماويّ يتّبعونه، ولا يمكن حصر الرسالات السماويّة بأُمّة دون أخرى، فالكتب السماويّة هي كتب هداية لكلّ الأمم بغض النظر عن الأُمّة التي قد يبعث فيها ذلك الرسول، كما لا يمكن حصر الرسالة الإسلاميّة التي جاء بها نبيّنا صلى الله عليه وآله بالعرب أو بالْأُمّيّينَ كما يحلو للمفسّرين تسميتهم، وهذا ما ذهب إليه ر. پاريه: عندما قال «كان محمّد في أوائل رسالته يعتبر العرب عامّة أو مواطنية من أهل مكّة أمّة قائمة بذاتها، كما أنّ الله أرسل رسله ومنذريه إلى الأمم السالفة، فهو قد أرسل محمدًا ليبلّغ رسالة الله إلى الأمّة العربيّة، وبيّن لها طريق النجاة، ولم يكن قد بعث فيهم رسولًا من قبل، وقد كُذّب

---

١. عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير (كثير) بن غنم بن دودان الأسدي، وهو أخو عبد الله بن جحش، وعبد بن جحش (أبا أحمد)، أسلم في مكّة في بداية الدعوة الإسلاميّة، وهاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية كما يقال مع زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وذكر أنّها ولدت له حبيبة فكنيت بها، تنصر عبيد الله بن جحش بأرض الحبشة، ومات بها نصرانيًّا، وكان يعيب على المسلمين إسلامهم بأرض الحبشة. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ٨٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣: ٨٧٧-٨٧٨.

٢. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١: ٨٩.

٣. النجم: ٣٦؛ الأعلى: ١٨-١٩.

٤. البقرة: ١٣٢.

٥. البقرة: ١٤٠.

وأوذي أشــدّ الإيذاء، شأن من سبقه من الرسل»[١]؛ لذا يعتقد المســتشرقون أنّ الرسالة النبويّة تأخــذ بعدًا عرقيًّا أو متعصّبًا للقوميّة العربيّة، وهذا الرأي لا يمكن أن يقبل على أيّ حال؛ لأنّه قائم على فرضيّة خاطئة تمامًا، وهي أنّ محمّدًا ﷺ مرســل إلى الأمة العربيّة فقط، كما يعتقدون أنّ موسى ﷺ كان مرسلًا إلى شعب إسرائيل، وعيسى ﷺ مرسلًا إلى أمّة فلسطينيّة ولا يعرف أحد ما هي هذهِ الأمّة[٢]، حتى ذهب المستشرق نيللنو[٣] (Nallino)، إلى أنّ كلمة أمّيّ مشتقة من الأمّة العربيّة[٤]، وهذا خلافًا لما أورده القرآن الكريم من عالميّة الدعوة الإسلاميّة.

وذكــر أنّ الْأُمّيّينَ هم أهل مكّة لأنّها تســمى أمّ القرى، وهــذا ما ورد عن الإمام الباقر ﷺ بعد أن سُــئل «إنّ الناس يزعمون أنّ رســول الله ﷺ لم يكتب ولا يقرأ، فقال كذبوا لعنهم الله، أنّــى يكــون ذلك وقد يكون وقد قال الله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُــولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾، فكيف يعلّمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرأ ويكتب، قال قلت فلم سمّي النبيّ الأمّيّ قال لأنّه نسب

١. پاريه، (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، ٢: ٦٣٣؛ و ٤: ٤١٣.

٢. بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ١.

٣. كارلو ألفونســو نللينو (Carlo Alfonso Nallino) (١٨٧٢-١٩٣٨م)، مســتشرق إيطاليّ، وُلد في مدينة تورينو، أتمّ دراســته الابتدائيّة والثانويّة في مدينة أودنه، كان له منذ طفولته ولع شــديد بالجغرافيا ودراسة اللغات الأجنبيّة، ولما كانت اللغة العربيّة أوسع اللغات انتشارًا في الأجزاء شبه المجهولة من الأوروبيّين، فاندفع إلى دراسة هذه اللغة، فبدأ بتعلّمها دون أســتاذ، ولم يقتصر تعلّمه عــلى اللغة العربيّة وحدها من بين اللغات الســاميّة، وإنّما درس أيضًا العبريّة والسريانيّة، ثم دخل جامعة تورينو وأصبح خبيرًا في تاريخ الفلك عند العرب، دعته الجامعة المصريّة القديمة في عام ١٩٠٩م، وطلبــت منه أن يلقي محاضرات في تاريخ علم الفلك عند العــرب باللغة العربيّة، تمخّض عنه كتاب تحت عنوان (علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوســطى طبع في رومــا (١٩١١-١٩١٢م)، ولم تكن عنايته بعلم الفلك إلّا جانبًا واحدًا من جوانب نشاطه العلميّ العديد والمتنوّع، كتب مقالًا وهو في الثالثة والعشرين من عمره عن (نظام القبائل العربيّة في الجاهليّة)، أخرج كتابًا رتّب فيها ســور القرآن ترتيبًا تاريخيًّا، وأضاف إليها تعليقات ومعجمًا بأهــمّ ما فيها من ألفاظ قارنها بمقابلاتها في اللغات الســاميّة، كتب العديد من المقــالات في دائرة المعارف الإيطاليّة، ودائرة المعارف الإســلاميّة، وله العديد من المؤلّفات يصعب حصرها في هذه الأســطر القليلة. للمزيد من التفاصيل ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، ٥٨٣-٥٨٧؛ العقيقيّ، المستشرقون، ١: ٤٣٢-٤٣٤.

٤. بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ١٧.

إلى مكّــة وذلك قول الله لتنذر أمّ القــرى ومن حولها، فأمّ القرى مكّة، فقيل أمّيّ لذلك»[١]، وقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام، مثله[٢]. ولعلّ التشابه في الكنية بين الإمامين، سبب في نسبة القول لهما.

ويبــدو أنّ هذا الحديث منســوب لآل البيــت عليهم السلام، أو لعلّ بعض الأحاديث المنســوبة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وآل البيت عليهم السلام تعكس لنا ثقافة الراوي الذي نسبها لهم، لأنّ اقتصار بعث الرسول صلى الله عليه وآله في أهــل مكّة فقط ليتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة تقييد في عالميّة الدعوة الإســلاميّة ما دمنا نؤمن بعالميّة الرسالة الإســلاميّة، مع تأخّر نزول سورة الجمعة حتى العهد المدنيّ.

ومثل هذا القول يتعارض مع قول نســب إلى الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾، قال: «كانوا يكتبون، ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله، ولا بعث إليه مرسولًا، فنسبهم الله إلى الأمّيّين»[٣]، أي الذين ليس لهم كتاب سماويّ.

فإذا كان المراد بالأمّيّين كلّ أهل مكّة مســلمهم وكافرهم، فذلك لا يناســب مذاق القرآن كون السورة مدنيّة، وضمير ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ**﴾ راجع إلى المسلمين لا إلى الكافرين، ولا منافاة مع كونه مبعوثًــا إلى الجميع[٤]، وكلُّ مدينة هي أُمُّ ما حَوْلها من القُرَى، فمن الممكن أن يكون ما ينطبق على مكّة منطبقًا على غيرها، وقد ورد على لســان نبيّ الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قولهما في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ (البقرة: ١٢٨)، فبعد دعائهم بطلب أن يكون من ذريتهما أمّة مسلمة طلبا بعدها أن يبعث فيهم رسولًا، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُــولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِــكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (البقرة: ١٢٩)، فقد تقدّم إســلامهم على بعث الرسول فيهم ليتلو عليهم آياتــه ويعلّمهم ويزكّيهم، وعودة الضمير إلى أهل مكّة بعيــد[٥]، فبهذا تكون كلمة الأمّيّين أعمّ

١. الصدوق، علل الشرايع، ١: ١٢٥؛ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ١٦: ١٣٣.

٢. الصدوق، علل الشرائع،١: ١٢٤-١٢٥؛ معاني الأخبار، ٥٣-٥٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ١٣٢-١٣٣.

٣. القمّيّ، تفسير القمّيّ، ٢: ٣٦٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ١٣٢.

٤. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩: ٢٦٤-٢٦٥.

٥. الآلوسي، روح المعاني، ١: ٣٨٦.

من أهل مكّة، فهي تشـمل كلّ ذرّيّة نبيّ الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولا يوجد رسول من نسل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام سوى محمّد صلى الله عليه وآله.

كذلك ورد قوله تعالى في تغيير القبلة في المدينة قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١)، فكلمة منكم تدلّ على المسلمين من المهاجرين والأنصار، ومن أنفسكم أي من بينهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، رغم أسبقيّة إيمانهم بعث لهم رسولًا من أنفسهم، فكلّ هذه الآيات تدلّ على البعث في المؤمنين أو المسلمين الغرض هو ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ بعد تسليمهم لله، ومن قبل هذا كانوا ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فالرسول صلى الله عليه وآله يحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن تحميل، هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين، وليحملوا ذلك أحسن الحمل[1]، ثم يحذّرهم الله من أن يحذوا حذو اليهود بحملهم كتاب الله دون معرفتهم ما في هذا الكتاب المنزل، ولا ومعارف دينه، ولا يدرون ما أودعه الله من الحدود والأحكام والفرائض؛ لذا خاطبهم الله في سورة الجمعة بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥)، والمراد بالذين حملوا التوراة ثمّ لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام وعلّمهم ما فيها من المعارف والشرائع، فتركوها ولم يعملوا بها، فحملوها ولم يحملوها، فضرب الله بهم مثلًا كالحمار يحمل أسفارًا، وهو لا يعرف ما يحمل، ولا يعرف ما فيها من المعارف والحقائق، فلا يبقى له من حملها إلّا التعب بتحمّل ثقلها، ووجه اتصال الآية بما قبلها أنّ الباري لما افتتح الكلام بما نَبه الله على المسلمين من بعث نبيٍّ يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ليخرجهم من الظلمات إلى نور الهداية ومن حضيض الجهل إلى أوج العلم والحكمة[2].

---

١. الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ١٩: ٢٦٣.

٢. م. ن، ١٩: ٢٦٦.

لذا يرى الباحثان أنّ كلمة ﴿الْأُمِّيِّـينَ﴾ تدلّ على عدم المعرفة بالكتاب المنزل وعدم العمل بما في الكتاب، وعدم المعرفـة بما أودعه الله إيّاه من الحدود والأحكام والفرائض؛ لذا كان دور الرسـول ﷺ هو إخراجهم مـن الظلمات إلى النور، وهو من بين هـذه الأمّة المؤمنة، ولا يمكن حصرهـا -أي كلمـة ﴿الْأُمِّيِّـينَ﴾- بالعرب أو بأهل مكّـة وحدهم، فهي تشـمل كلّ الأُمم والرسالات السماويّة السابقة للرسالة الإسلاميّة كونه ﷺ خاتمها، فهو رحمة ورسول لكلّ الأُمم كما مرّ بنا في وصفه بالنبيّ الأمّيّ (الأُمـميّ).

ثالثًا: مناقشة آراء المستشرقين في معاني الأمّيّة

وبعـد بيان معاني الأمّيّـة في القرآن الكريم والمصادر الإسـلاميّة، نتناول مـا مرّ من كلام المستشرقين حول بيان معاني الأمّيّة، فيرى المستشرق ر.پاريه، كغيره من المستشرقين عدم صدق الرسالة التي جاء بها النبيّ ﷺ، وهذ ما بدا واضحًا وجليًّا في المقالين اللذين تكفّل بكتابتهما عن كلمة (أَمة) وكلمة (أمّيّ)، فهو يرى أنّ كلمة أَمة لم تكن مشـتقّة من اللغة العربيّة؛ بل هي كلمة مأخوذة من العبريّة أو الآراميّة، وقد اقتبسـها النبيّ ﷺ واستعملها حتّى صارت لفظًا إسلاميًّا، أو أنّـه ربّما تصرّف في المعنى الأصليّ للكلمة، أو أنّه لم يكن على بيّنة مما تدلّ عليه كلمة أمّيّ عند اليهـود، لذا فهو ينكر نبوّة النبيّ ﷺ ويرى أنّ القرآن مـا هو إلّا نتاج فكر النبيّ محمّد ﷺ، وعلى الرغم من أنّ اللغة العربيّة هي جزء من اللغات الساميّة كما هي اللغات العبريّة والآراميّة، وهذا ما ذكره المسـتشرق إسرائيل ولفنسون[1] الضليع باللغات الساميّة[2]، ويقول في هذا الجانب يجب ألّا يبالغ في مسـألة تأثـير الآراميّة والعبريّة في العربيّة؛ إذ ينبغي أن يتحرّز من الخطأ في تسـمية بعض الكلمات العربيّة إلى إحدى أخواتها السـاميّة ظنًّا منها أنّهـا منقولة منها، فقد يوجد عدد

١. إسرائيل ولفنسـون (Y. Wolfensohn)، الملقّب أبو ذؤيب، مسـتشرق ألمانيّ، مدرس للغات الساميّة بدار العلوم، ثم بالجامعة المصريّة، من آثاره: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الاسلام، بالعربيّة، وقد قدم له الدكتور طه حسين (القاهرة، ١٩٢٧م)، وتاريخ اللغات الساميّة بالعربيّة (القاهرة، ١٩٣٠م)، وموسى بن ميمون حياته ومصنفاته بالعربيّة (القاهرة ١٩٣٧م)، وكعب الأحبار (بالألمانيّة). ينظر: العقيقيّ، المستشرقون، ٢: ٤٦٠.

٢. ولفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ٢٠.

كبـير من الألفاظ له صيغة آراميـة أو عبريّة، وهو في الواقع كان يسـتعمل عند العرب قبل أن يحدث الاتصال بين هذه اللغات[١].

أمّـا عن كلمة (أَمـة) و(أُم) في العربيّة ومثيلاتها في اللغات العبريّـة والآرامية، وهي تؤكد الأصل الواحد لهذه اللغات، نورد ما ذكره المسـتشرق إسرائيل ولفنستون في رسم (أَمة) و(أُم) في اللغات الساميّة[٢].

عربيّ

أشوريّ بابليّ

عبريّ

آراميّ

لغات جنوب الجزيرة العربيّة والحبشة

أَمَة

أَمْتُو

أَمَه

أَمْتَا

أَمَة

أُمٌّ

أُمُّو

أَم

أَمَا

أُمّ

فكلمة أمّة مشـتقّة مـن أمم، وهي جمع للكلمة في اللغة العربيّة كـما في اللغة العبريّة (أمة-

١. م. ن، ١٦٣.

٢. م. ن، ٢٨٣-٢٨٤.

جوي) وجمعها (أمم-جوييم)، كما بيّنا في ما سبق[١]، وهي ليست مشتقّة من (أُمّ) العربيّة[٢]، ويرى ر.پاريه، أنّ مصطلح الأُمّة لم يظهر إلّا بعد الهجرة، ولعلّ مقصوده كان أنّ ظهوره كان في وثيقة المدينة، أو ربما أنّ ظهور المصطلح في القرآن لم يكن إلّا بعد الهجرة، إلا أنّ بعض آيات سورة الأعراف هي مكّيّة كما أشار معلّقو دائرة المعارف الإسلاميّة إلى ذلك[٣]، ولم يبيّن لنا عن معنى كلمة أُمّة التي كانت شائعة قبل الهجرة كما ذكر، وهل هي مختلفة عن معناها بعد الهجرة كما يعتقد؟!

ويرى ر.پاريه أنّ (الآية ٢٠ من سورة آل عمران) يدعو فيها أهل الكتاب والأمّيّين لاعتناق الإسلام، وذكر أنّ الأمّيّين هنا هم المشركون (الوثنيّون)، وقد بيّنا أنّه لم يكن هناك جدل أو محاجّة مع المشركين (الوثنيّين) في السنة التاسعة من الهجرة؛ لأنّ الآيات متأخّرة النزول، ونزلت في جدل أهل الكتاب مع النبيّ ﷺ، وقال إنّها تدلّ على المعنى نفسه في (الآية ٧٥ من سورة آل عمران)، رغم أنّ الآية الأخيرة تبيّن نظرة أهل الكتاب إلى الأُمم الأخرى، فهي نظرة استعلائيّة، كما ورد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: ١٨)، فيعتقد أهل الكتاب بتمايزهم وتعاليهم على الأمم الأخرى وحتّى الكتابيّة منها، ولا يمكن تعميم تلك الرؤية على غيرها من النصوص التي وردت فيها كلمة الأمّيّين، فقد كانت هناك الديانة الحنيفيّة،

---

١. ينظر: إلى اشتقاق كلمة أمّة في اللغة العربيّة: الفراهيديّ، كتاب العين، ٨: ٤٢٦-٤٢٨؛ الجوهريّ، الصحاح، ٥: ١٨٦٣-١٨٦٧؛ ابن منظور، لسان العرب، ١٢: ٣٢-٣٤؛ الزبيديّ، تاج العروس ١٦: ٢٦-٣١. وينظر: في اللغة العبريّة: مجموعة من علماء اللاهوت، دائرة المعارف الكتابيّة، ١: ٤١٧.

٢. ويبدو أنّ هناك خطأ قد وقع في الترجمات العربيّة لكلمة (أَمة) في العبريّة والآرامية، وولفنسون يترجمها بالعبريّة (أَمَه) وفي والآرامية (أَمْتَا)، خلافًا لما ورد في دائرة المعارف الإسلاميّة (أمّا) بالعبريّة (أمّيّتا) والآرامية، وولفنسون خبير في اللغات الساميّة، فقوله الاكثر ترجيحًا للقبول لأن اللغات الساميّة تتشابه في رسم الكلمات واشتقاقاتها.

٣. وقد ذكر أحمد محمد شاكر الذي علق على المقال في دائرة المعارف الإسلاميّة، بأنّ ما ذكره المستشرق من أنّ كلمة أمّيّ لم تظهر إلّا بعد الهجرة، وأنّ الكلمة مما أطلقه اليهود على العرب، وأنّهم يريدون بـ(الأمّيّين) الوثنيّين، وبين أنّ آيات سورة الأعراف مكّيّة خلافًا لما ذكر المستشرق، ينظر: پاريه، (أمّيّ)، ٢: ٦٤٥؛ پاريه، (أمّيّ)، ٤: ٤٢٧. ولعلّ المستشرق قصد أنّ مصطلح (أُمة) لم يظهر إلّا بعد الهجرة في وثيقة المدينة ينظر: ابن هشام، السيرة النبويّة، ٢: ٣٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية ٣: ٢٧٣.

وهي ديانة ليست شركيّة، ولهم كتاب سماويّ وهو صحف إبراهيم عليه السلام، وقد قرن بصحف موسى عليه السلام بالقرآن الكريم[١]، ومركزها الدينيّ مكّة المكرّمة؛ لذلك لا يمكن تعميم كلمة الأمّيّين التي فسّرها بالمشركين (الوثنيّين)، وأراد تعميمها على الأمم غير الإسرائيليّة؛ لذلك اعتقد بعدها أنّ من المحتمل أنّ كلمة الأمّيّين قد وضعها اليهود (أهل الكتاب)، واستند فيها على ما ذكره المستشرق هورفتز بعد أن وجد لها الأخير مقابلًا في العبريّة[٢]، فقد كان هورفتز يرى أنّ أمّيّ تعني وثنيّ، لكن كيف يمكن أن يقدّم النبيّ صلى الله عليه وسلم نفسه إلى أهل الكتاب على أنّه النبيّ الوثنيّ أو المشرك، فهذا لا يقبله عقل!!، وردّ عبد الرحمن بدوي[٣] على ما ذكره المستشرق هورفتز بالقول: ترجم هورفتز التعبير العبريّ (أمة ها عو لام) بمعنى (شعوب العالم في مقابل شعب إسرائيل)، لكن من السهل تفنيد هذا الرأي (فأمّيّ) لا تعني الوثنيّ؛ لأن الله وصف نبيّه بأنّه أمّيّ وهو يجادل اليهود (أهل الكتاب) ومن المستحيل والمخالف للواقع أن يصف الباري نبيّه بأنّه أمّيّ وهو يقصد كافرًا أو وثنيًّا؛ لأنّ بهذا المعنى تكون صفة الأمّيّ فيها نوع من الإهانة.

وذهب بعدها إلى أنّ ما ورد في (سورة الجمعة، الآية ٢) من أنّ محمّدًا رسول من الأمّيّين إلى الأمّيّين، وبعد بيانه أنّ كلمة الأمّيّين تعني الوثنيّين (المشركين)، فأراد القول إنّ محمّدًا رسول من الوثنيّين إلى الوثنيّين، ثمّ بعدها وقف عاجزًا عن فهم المعاني المختلفة التي قصدها القرآن الكريم من كلمة أمّيّ وأمّيّين وأمّة، فقال لو وازنّا (سورة الأعراف، الآية ١٥٧) التي أعتقد أن معناها الوثنيّ، مع ما امتدح به أُمّته في (سورة آل عمران، الآيات ١٠٤، ١١٠)، قال بعدها ربما تصرّف النبيّ في المعنى الأصليّ لكلمة (أمّيّ)؛ لأنه لم ير منقصة في لقب الأمّيّ.

وتناول ما ذهب إليه بول (بوهل) من أنّ الأمّيّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب وليس معناها الوثنيّ، ويرى أنّ رأي بول (بوهل) مطابق لنصّ (الآية ٧٨ من سورة البقرة)، بالرغم من أنّ

---

١. النجم: ٣٦؛ الأعلى: ١٨-١٩.

2. Horovitz, Koranische Untersuchungen, 52.

٣. بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ١٦. (وقد ذكر بدوي أن النبيّ وصف نفسه بالأمّيّ، في حين أنّ الباري هو من وصفه بهذا الوصف وقد تصرّفنا بالنصّ).

هذه الآية الأخيرة أشارت إلى اليهود لا إلى العرب؛ لأنّهم لم يعلموا بما في التوراة، جاهلين ما فيها من أحكام وتشريعات، وإذا أردنا تعميمها، فتشمل كلّ أصحاب الكتاب، فمن المسلمين من لا يعرف ما في الكتاب من أحكام وتشريعات فهم أمّيّون، لكن سياق الآيات السابقة لها تدلّ على أنّها نزلت في اليهود؛ لذا كان ذلك سببًا في بعث النبيّ ﷺ ليبيّن لهم ما خفي عنهم في التوراة ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وما ذكر من أنّ (الآية ٧٥ من سورة آل عمران) لا تدلّ على الذي لا يقرأ ولا يكتب بل الوثنيّ، رغم أنّ الآية تشير بما لا يقبل الشكّ إلى أنّ هذا هو قول أهل الكتاب، وقيل اليهود تحديدًا؛ لأنّهم قالوا إنّ حرمان الناس حقوقهم من المخالفين لنا مذكور في التوراة، فقالوا الكذب على الله وهم يعلمون، وقد بيّناه سابقًا، وتعني الأمّيّين الأمم من غير الإسرائيليّين حسب التعبير الكتابيّ، ولم يذكر أنّهم المشركون أو الوثنيّون، مع أنّها أطلقت في التوراة أحيانًا على الأمم الإسرائيليّة.

ونؤيّد ما ذكره المستشرق ر.پاريه (ر. پارت) بأنّ الكلمة العربيّة (أُمة)، والعبريّة (أُما) أو (أَمَه)، والآرامية (أمّيّتا) أو (أَمْتَا)، لا تدلّ على الأمّة في حالة الجهالة، ويؤيّد ما ذكره من أنّ (الآية ٧٨ من سورة البقرة) لا ترمي الأمّيّين بالجهل بالقراءة والكتابة؛ بل ترميهم بعدم معرفتهم بالكتب المنزلة، لكن نختلف معه في أنّ المعني منهم في الآية هم اليهود وليس العرب كما يظنّ، ومن الممكن أن يكون العرب هم المعنيّون لو كان الخطاب القرآنيّ يعنيهم، فليس كلّ العرب تعلم بكلّ ما هو موجود بالكتاب أو بالكتب المنزلة.

أمّا ما ذكره كاتبا مقال محمّد ﷺ من أنّ (الآية ١٧٥ من سورة الأعراف) تشير إلى الذي لم يبلّغ بكتاب من قبل. نعم، لم يبلّغ بكتاب لأنّه حامل الكتاب، والمبلّغ به لجميع الأمم، فهو نبيّ منذ ولد كما بيّنا سابقًا، وحاولوا إيجاد حلّ وسطيّ بالقول إنّه كان أمّيًّا قبل تلقّيه الوحي لا بعده، رغم ذلك وقعوا في تناقض كلامهم عندما ذكروا أنّ اشتغاله بالتجارة يستلزم قدرًا من الإحاطة بقراءة العربيّة وكتابتها، رغم أنّ احترافه التجارة كان قبل البعثة النبويّة لا بعدها، وما ذكر من أنّ اكتساب كلمة أمّيّين معناها الشائع، وهو الجهل بالقراءة والكتابة في الدوائر الدينيّة، وأنّ هذا يعدّ دليلًا على معجزة تلقّيه الوحي، فلم تكن تلك مسألة قطعيّة، بل مستندها ظواهر

وأخبـار آحاد صحيحة، غير أنّ العقل لا يحيلها. وليـس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها[1]، لذا اعتـبروا الجهل بالقراءة والكتابة للنبيّ ﷺ ونزول الوحـي عليه من المعجزات، رغم أنّ القرآن الكريم وحده من أكبر وأصدق المعجزات على نبوّتهِ؛ لذا فعندما لم يجدوا تفسـيرًا واضحًا لهذه المصطلحات فسّروا الآيات القرآنيّة على ظاهرها.

أمّا ما ذكره إ. جوفروي (E. Geoffroy)، فهو ترديد لما سبق من آراء للمستشرقين، غير أنّه ذكر الآية ٧٨ من سورة البقرة التي تشير إلى اليهود الذين يعرفون التوراة بصورة غير تامّة، وهي تأكيد لمـا ذكرناه بأنّ الآية لا علاقة لها بالعرب، وردّد أغلب الآراء التي ذكرها بعض المفسّرين المسـلمين في عدم معرفة النبيّ ﷺ القراءة والكتابة، وذكـر بالمقابل الآراء التي تؤيّد معرفته لها، ذاكرًا بعض الآراء الصوفيّة لمعرفته الواسـعة في هذا الجانب، ولم يعطِ رأيًا، لكنّه مال في بعضها إلى القـول إنّ النبـيّ الأمّيّ هو نبيّ الوثنيّين أو الذين ليس لهم كتاب سـماويّ، أو نسـبة إلى أمّ القرى، رغم ذلك كانت رؤيته لهذا المفهوم أو المصطلح القرآنيّ أكثر علميّة من سابقةِ، ر.پاريه، وهذا يبيّن تطوّر المنهج المتّبع في الدراسات الاستشراقيّة، وتخلّصها من بعض الرؤى القروسطيّة المتحاملة على الرسول والرسالة.

خلاصة الكلام أنّ تعـدّد الرؤى في مصطلح الأمّيّة يدلّ على وجود عدّة زوايا لهذا المفهوم القـرآنيّ، وأنّ قراءة الأخير ليسـت قراءة واحدة أو ثابتة، نظـرًا لأنّ النصّ يتضمّن دلالات أو معاني عديدة يمكن اكتشافها من خلال هذه الزوايا، فكلّ قارئ في مرحلة معيّنة يكتشف جانبًا مـن معنى النصّ الظاهـر أو الكامن وفقًا للظروف الثقافيّة والنفسـيّة والاجتماعيّة، باعتبار أنّ النـصّ نصّ مفتـوح الدلالة والمعاني والأفـكار، فلا يمكن تعميم معنـى أو دلالة واحدة لهذا المفهوم على هذه النصوص المتعدّدة المعاني.

الخاتمة

أظهرت دراسـة أمّيّة النبيّ ﷺ الاختلاف في تفسـير النصوص الـواردة في القرآن الكريم حول مفهوم الأمّيّة عند النبيّ ﷺ والمسلمين، ومن خلال هذه الدارسة تبيّن أنّ مصطلح (النبيّ

١. القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ١٣: ٣٥٣.

الأمّـيّ) مختلف عن مفهـوم (الأمّيّون) (الأمّيّين)، الواردة في القرآن الكريم، وأنّ الدراسـات القرآنيّة وتفسـير نصوص القرآن تختلف من زمان لآخر، وأنّ بعض الموضوعات، سـواء أكان في القـرآن الكريم أم في مجال السـيرة النبويّـة، تتغيّر فيها رؤى الباحثين، ولـو كتبت مصادرنا الإسلاميّة من جديد وفي هذا الزمان، لكانت أدقّ وأوفى من الذي هي عليه الآن، فلا غرابة من وجود اختلاف في الرؤى في المصادر الإسـلاميّة في العهود الإسلاميّة في ما يخصّ هذا المفهوم، لما شهده العالم الإسلاميّ من صراعات سياسيّة وعقائديّة بين الفرق الإسلاميّة منذ القرن الأوّل الهجريّ، واستغلال المستشرقين لهذا الاختلاف في تفسير هذا المصطلح القرآنيّ من أجل الطعن بالرسولﷺ والرسـالة الإسلاميّة، فتعدّد النصوص ودلالاتها دلالة على تعدّد زوايا قراءة هذا المفهوم (المصطلح) القرآنيّ، فكلّ باحث في الدراسـات القرآنيّة أو السـيرة النبويّة يمكنه قراءة هذا المفهوم بصورة مختلفة عن الآخر، وفقًا للبيئة والظروف المحيطة بهذا القارئ أو ذاك، وهذا ما استغلّه المستشرقون لإسقاط بعض الرؤى غير المنصفة تجاه الرسولﷺ والرسالة الإسلاميّة، وتجاه المسلمين جميعًا. وشهدت دراسة أمّيّة النبيّﷺ من خلال دائرة المعارف الإسلاميّة وجود بعض التغيير في رؤى المستشرقين تجاه أمّيّة النبيّﷺ، بين الطبعة الأولى والطبعة الثانية (الجديدة)، وهذا ما يدلّ على تخلّص الدراسات الاستشراقيّة الحديثة من بعض الرؤى القروسطيّة المتحاملة على الإسلام والمسلمين بصورة عامّة.

لائحة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الكتاب المقدّس.
٣. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيبانيّ (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار الكتاب العربيّ، د.ت.
٤. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب بن إسحق الورّاق (ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م)، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد (بلا معلومات).
٥. ابن حبيب، محمد بن حبيب البغداديّ (٢٤٥ هـ/ ٨٥٩م)، المنمّق في أخبار قريش، تصحيح وتعليق: خورشيد أحمد فاروق، د.م، عالم الكتب، د.ت.
٦. ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلانيّ (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٩٥م.
٧. ابن حنبل، أحمد بن محمد (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، مسند أحمد بن حنبل، بيروت، دار صادر، د.ت.
٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمّى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ط٤، د.ت.
٩. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (٢٣٠هـ/ ٩٤١م)، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د.ت.
١٠. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: علي محمّد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م.
١١. ابن عربي، أبو عبد الله محمّد بن علي (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، الفتوحات المكّيّة، بيروت، دار صادر، د.ت.
١٢. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م.
١٣. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل الدمشقيّ (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار احياء التراث العربيّ، ط١، ١٩٨٨م.

١٤. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، قم، ادب الحوزة، ١٩٨٥م.

١٥. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميريّ (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، السيرة النبويّة، تح: محمّد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة المدني، ط١، ١٩٦٣م).

١٦. آرمسترونغ، كارين، سيرة النبيّ محمد، ترجمة: فاطمة محمد ومحمد عناني، القاهرة، دار سطور، ط٢، ١٩٩٨م.

١٧. الآلوسيّ، شهاب الدين محمود (ت ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بلا معلومات).

١٨. الأمين، محسن، أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، بيروت، دار التعارف، د.ت.

١٩. البخاريّ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ/ ٨٦٩ م)، صحيح البخاري، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨١م.

٢٠. بدوي، عبد الرحمن، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ترجمة: كمال جاد الله، د.م، الدار العالميّة، د.ت.

٢١. ــــــــــــــــ، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٩٣م.

٢٢. البلاذريّ أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، مصر، دار المعارف، ١٩٥٩م.

٢٣. ــــــــــــــــ، فتوح البلدان، القاهرة، النهضة المصريّة، د.ت.

٢٤. بول. ب. و، ولت، ت، مادة (محمّد)، موجز دائرة المعارف الإسلاميّة، ترجمة: حسين أحمد أمين، الشارقة، مركز الشارقة، ط١، ١٩٩٨م.

٢٥. البيهقيّ، أبو بكر أحمد بن الحسن (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، دلائل النبوّة، تحقيق وتعليق: عبد المعطي قلعجيّ، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٨٥م.

٢٦. پاريه، ر.، مادة (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، (بدون اسم مترجم المقال)، القاهرة، د.ن، ط١، ١٩٣٣م.

٢٧. الثعلبيّ، أحمد بن محمد بن إبراهيم (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م)، الكشف والبيان في تفسير القرآن (تفسير الثعلبيّ)، لبنان، دار إحياء التراث العربيّ، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٨. الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٩٨م.
٢٩. الجوهريّ، إسماعيل بن حماد (٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، لبنان، دار العلم، ط٤، ١٩٨٧م.
٣٠. الذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق وتقديم: شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ط٩، ١٩٩٣م.
٣١. الراغب الأصفهانيّ، الحسين بن محمّد بن المفضل (٥٠٢هـ/ ١١٠٨ م)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، قم، طليعة النور، ط٢، ٢٠٠٦م.
٣٢. الزبيديّ، محب الدين أبو الفيض السيد مرتضى الحسينيّ (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٤.
٣٣. الزمخشريّ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (٥٣٨ هـ/ ١١٤٣م)، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مصر، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٦م.
٣٤. السمرقنديّ، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)، تفسير السمرقنديّ، تحقيق: محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر، د.ت.
٣٥. السهيليّ، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن ابي الحسن الخثعميّ (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)، الروض الآنف، قدّم وعلّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩م.
٣٦. السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
٣٧. الصدوق، محمّد بن عليّ (ابن بابويه القمّيّ) (٣٨١هـ/ ٨٩٤م)، علل الشرايع، تحقيق وتقديم: محمّد صادق بحر العلوم، النجف، المكتبة الحيدريّة، ١٩٦٦م.
٣٨. ــــــــــــــــ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٩٥٩م.
٣٩. الطباطبائيّ، محمد حسين (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، الميزان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، د.ت.

٤٠. الطبرسيّ، أبو علي الفضل بن الحسن (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ، ط١، ١٩٩٥م).
٤١. الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الرسل والملوك) (تاريخ الطبريّ)، تحقيق: نخبة من العلماء، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ، ط٤، ١٩٨٣م.
٤٢. ــــــــــــــــ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: تفسير الطبري، قدم له: خليل الميس، ضبط: صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م.
٤٣. الطوسيّ، أبو جعفر محمّد بن الحسن (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، التبيان في تفسير القرآن، تح: أحمد حبيب العامليّ، د.م.، الإعلام الإسلاميّ، ط١، ١٩٨٩م).
٤٤. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دار الكتب المصريّة، ١٩٣٩م.
٤٥. العسليّ، خالد، مفهوم الجاهلية والأمّيّة دراسة في الكتابة عند أهل مكّة، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلاميّة المبكرة، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، (آفاق عربيّة)، ط١، ٢٠٠٢م.
٤٦. العقيقيّ، نجيب، المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ط٤، د.ت.
٤٧. الغلاييني، مصطفى، جامع الدروس العربيّة، بيروت، المكتبة العصريّة، ط ٣٠، ١٩٩٤م.
٤٨. الفخر الرازيّ، محمّد بن عمر بن الحسين بن الحسن (٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م)، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي)، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٨١م.
٤٩. الفراهيديّ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (١٧٥هـ/ ٧٩١م)، كتاب العين، تح: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، إيران، دار الهجرة، ط٢، ١٩٩٠م.
٥٠. القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٨٥م.
٥١. القمّيّ، أبو الحسن عليّ بن إبراهيم (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، تفسير القمّيّ، تصحيح وتعليق: طيب الموسويّ الجزائريّ، النجف، منشورات مكتبة الهدى، ١٩٦٧م.
٥٢. مادة (أمّيّ)، دائرة المعارف الإسلاميّة، (بدون اسم مترجم المقال)، القاهرة، دار الشعب، ط٢، ١٩٦٩م.

٥٣. المجلسيّ، محمد باقر (١١١١هـ/ ١٦٩٩م)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، تحقيق: إبراهيم الميانجي ومحمد الباقر البهبودي، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط٢، ١٩٨٣م.
٥٤. مجموعة من علماء اللاهوت، دائرة المعارف الكتابيّة، القاهرة، دار الثقافة، ط١، د.ت.
٥٥. المسعوديّ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، قم، دار الهجرة، ط٢، ١٩٨٤م.
٥٦. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوريّ (٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، بيروت، دار الفكر، د.ت.
٥٧. المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٤١٣هـ/ ١٠٢٢م)، أوائل المقالات، تحقيق: إبراهيم الأنصاري، بيروت، دار المفيد، ط٢، ١٩٩٣م.
٥٨. مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ/ ٧٦٧م)، تفسير مقاتل بن سليمان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠٠٣م.
٥٩. النصر الله، جواد كاظم منشد، «الجاهليّة فترة زمنيّة أم حالة نفسيّة؟ مجلّة أبحاث البصرة»، العلوم الإنسانيّة، العدد ٣١، البصرة، ٢٠٠٦م.
٦٠. نولدكه، تيودور، تاريخ القرآن، تعديل فريديريش شفالي، ترجمة: جورج تامر، بيروت، دار نشر جورج المز، هيلدس هايم زيورخ- نيويورك، بإذن دار نشر ومكتبة ديتر شفيس بادن، ط١، د. ت.
٦١. الهمذانيّ، رشيد الدين فضل الله (٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، مخطوط المجموعة الرشيديّة، المكتبة الوطنيّة في فرنسا قسم المخطوطات العربيّة، باريس، رقم المخطوط ٢٣٢٤.
٦٢. الهيثميّ، نورالدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٨٨م.
٦٣. وات، مونتغمري، محمّد في مكّة، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ وحسين عيسى، القاهرة، الهيئة المصريّة للكتاب، ٢٠٠٢م.
٦٤. ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اللغات الساميّة، ترجمة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، مطبعة الاعتماد، ط١، ١٩٢٩م.
٦٥. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغداديّ (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٧٩م.

٦٦. اليعقـوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بـن واضح (حيا في ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، د.ت.

٦٧. اليوسفي، محمد هادي، موسوعة التاريخ الإسلاميّ، قم، مؤسّسة الهادي، ط١، ١٩٩٦م.

68. Buhl, Frants, &Hans Heinr Schaeder, Das Leben Muhammeds, Leipzig, Quelle&Meyer, 1930.

69. Buhl, F.–OA, Welet T, (Muhammad), The Encyclopaedia of Islam, 2nd. ed., Leiden- New York, E. J. Brill, 1993, V.VII.

70. Geoffroy, E, (Ummi), The Encyclopaedia of Islam, 2nd. ed., Leiden, Brill, 2000, V.X.

71. Horovitz, Josef, Koranische Untersuchungen, Berlin and Leipzic, Walter de Gruyter, 1926.

72. Lammens, Henri, Qoran et Tradition Comment Fut Compose La Vie de Mahomet, Recherches de Science Religieuse, Paris, 1910.